فلاح العيساوي

أنقاض وطن

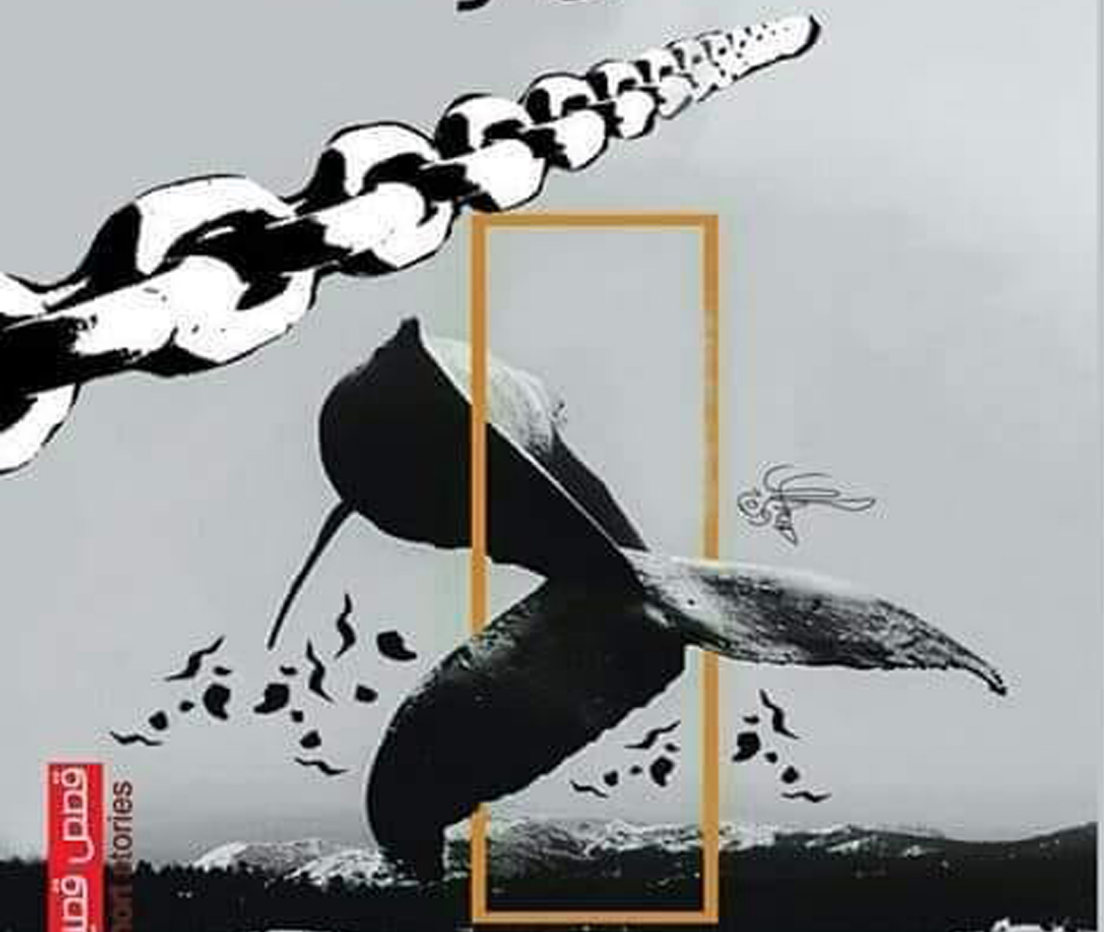

قصص قصيرة
short stories

المجموعة الفائزة بجائزة القصة القصيرة
دورة القاص علي السباعي

2019

أنقاض وطن

أسم الكتاب : أنقاض وطن
المؤلف : فلاح العيساوي

الطبعة : الأولى ٢٠١٩م
الناشر : منشورات أحمد المالكي
مصمّم الغلاف : حيدر الشويلي
التنسيق الداخلي : فلاح العيساوي
البريد الإلكتروني : fffhh9@gmail.com

منشورات أحمد المالكي
طباعة نشر توزيع بغداد شارع المتنبي
07733929378
07819313395

رقم الإيداع (١٧٢١) في دار الوثائق والكتب في بغداد لسنة ٢٠١٩م

العراق- بغداد- شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٣٩٢٩٣٧٨ - ٠٧٨١٩٣١٣٣٩٥
بريد الكتروني: hassanjasdrt@gmail.com
احمد المالكي: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

All copyrights are reserved, and no organization, organization, or entity may reproduce, transmit or transmit this book in any form or mode of transmission of information, whether electronic or mechanical, including copying, recording, storing and retrieving, Without the written permission of the right holders.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

فلاح العيساوي

أنقاض وطن

قصص قصيرة

٢٠١٩

الإهداء

إلى من...

انزلقت منه دمعة

على انقاض الوطن

أوجاعُ ذكرى

المكانُ باردٌ موحشٌ، فرائصي ترتعدُ، مصيرٌ مجهولٌ، أسبابٌ أحاولُ أيجادَها في تلافيفِ رأسي، أشباحٌ تدورُ حولي وأنا معصوبُ العينين، الأحاسيسُ شتتني والخُطُواتُ تتعثرُ في رحلةِ الصمتِ، وسط الضجيجِ الذي يعلو في خلايا الدماغِ. كيف أعرفُ لِمَ أنا مقيّدٌ؟ ما الذنبُ الذي اقترفته؟ هل هذه الأرواحُ التي تدورُ حولي موجودةٌ فعلاً؟ أصواتٌ تثيرُ الرعبَ في نفسي، ثيابٌ تتمزقُ... يجرّدُها مع ضحكاتٍ تسلخُ الروحَ... تصرخُ: (لا تفعلْ أرجوك... أنا مثلُ أختِكَ...)، صوتُها فجّرَ بركاناً من الأسئلةِ في داخلي، مَنَ هذه المسكينةُ، قد تكون أختي... لا... مستحيل، صوتُها لا يشبه صوتَ أختي.

عمّ المكانَ هدوءٌ مشحونٌ بالتوترِ، أسمعُ صريرَ البابِ، شخصٌ ما يقترب من خلفي، ماذا سيفعلُ؟ تتسارعُ نَبَضاتُ قلبي نبضةٌ إثرَ نبضةٍ؛ صفعني على قفاي بقوةٍ، وقف أمامي، وأزالَ العصابةَ عن عينيَّ وخرج.

الظلامُ حالكٌ جداً... لا أستطيعُ حتى أن أميّزَ أصابعَ يدي، الضوءُ الذي انبعثَ من جميعِ أنحاءِ الغرفةِ جعلني لا

أقوى على فتحِ عينيَّ، أكثر من خمسِ دقائقَ أحاولُ تقبّلَ النورِ دون جدوى، أختفى ذلك الوَهَجُ، وأسفر عن ظهورِ شاشةٍ شبه كبيرةٍ بدأتْ تعرضُ صوراً بشعةً لأنواعِ التعذيبِ الوحشي، وبين هذا وذاك سياطٌ تهوي على الأجسادِ تقرعُ أبواقَ الألمِ، -لا أعرف ما يخبِّئُهُ القدرُ لي في لحظاتٍ قادمةٍ؟- الأصواتُ التي تَبعثُ القرفَ في نفسي انتهت فجأةً، استرجعتُ شريطَ الأحداثِ ليومي منذ الصباحِ... على عادتي تأنَّقتُ، تعطَّرتُ، تأمَّلتُ نفسي في المرآةِ، أخرجُ من البيتِ كأنَّني ذاهبٌ إلى حفلِ زفافٍ، عند بابِ الجامعةِ شاهدتُها تترجَّلُ من سيارتِها الحمراءَ، رَوعَتُها جذبتني إليها، سحرُها وقوامُها الممشوقُ لا يقاومُ، جسدٌ صاغتهُ يدُ القدرةِ بحرفيةٍ منقطعةِ النظيرِ، عندما اقتربتْ مني نظرتْ إليّ، ابتسمت؛ فكشفتْ عن بَرَدِها المكنونِ كأنَّهُ اللؤلؤُ، شفتاها القرمزيتانِ اقشَعرَّ لهما جسدي، شعرُها الطويلُ المنسابُ يُغازلُ ناظري، عطرُها بأريجِ الياسمينِ شلَّ قدميَّ؛ تجمَّدتُ في مكاني، ألقتْ تحيتَها... مرحباً... معزوفةٌ لم تبرحْ موسيقاها مدارِكَ عقلي... في مرحلةِ الرابعِ، لم أرَ هذا الجمالَ من قبلُ، ربما أتتْ من جامعةٍ أخرى؟.

- أهلا... قلتُها بصوتٍ متعثرٍ.

- أنا ذكرى، طالبةٌ في المرحلةِ الرابعةِ كليةُ الفنونِ الجميلةِ قسمُ الموسيقى، ممكن أنْ ترشُدَني إلى قاعةِ القسمِ؟.

- سبحان اللّهِ، أنا في نفسِ القسمِ، تفضَّلي معي.

كم أنا غبيٌ! لماذا أتذكرُ لقائي الأولَ مع حبيبتي ذكرى؟ عليَّ أنْ أتذكرَ يومي التعيسَ هذا، أريد معرفةَ سببِ وجودي هنا... هل تفوَّهتُ بكلمةٍ على (.....)، لا أبداً لم أفعلْها. من يتجرأ على ذكرِ أسمِ الرئيسِ حتى بالخيرِ؟. عادتْ الشاشةُ إلى العملِ، هذه المرةُ بثتْ شريطَ فيديو أكثرُ رعباً من الصورِ الأولى، تمنيتُ بدموعٍ حارَّةٍ وقلبٍ وجلٍ؛ أنْ لا يفعلوا بي ما فعلوه بالشخصِ الذي ظهرَ في ذلك التسجيلِ.

أحاول الهروبَ إلى حديقةِ الزهورِ بين الأشجارِ كانت تجلسُ أمامي، تضعُ يدَها في يدي، أهمسُ لها بكلماتِ الحبِ، طلبتُ منها أن تُعرِّفَني على أهلِها، هذا العشقُ يجبُ أن يكلَّلَ بالزواجِ، لا أستطيعُ تحمُّلَ الأيام بعيداً عنها، الشوقُ خنجرٌ مسمومٌ يطعنُ قلبي، لماذا أجّلتْ الحديثَ عن أسرتِها إلى لقائِنا القادمِ؟ ذكرى حبيبتي... دموعي تنزفُ، اليومَ حرمَني القدرُ من موعدِ مع الحبِ، اليوم كنتُ أنتظرُ التعرّفَ على أسرتِكَ، ماذا أفعلُ أنا هنا؟

في هذه اللحظاتِ أنتِ تنتظرينَ لقائي... هل ستعذرينني لعدمِ الحضورِ؟ مؤكدٌ ستغضبين مني، لكنْ سأشرحُ لكِ إذا كتبَ لي القدرُ النجاةَ من هذا الكابوس.

- أبتعد عن ذكرى... قالَها لي ذلك الرجلُ الغريبُ ذاتَ مرةٍ أمامَ بابِ الجامعةِ، -الآن تذكرتُ- عندما سألتُهُ: من أنتَ؟ تركني وذهبَ.

في اليوم التالي أخبرتُها عن ذلك الرجلِ؛ أنكرتُ معرفتَهُ، كانت صادقةً وعلاماتُ الدهشةِ تعلو وجهَها الذي تموَّج بالألوانِ، لا أعرفُ أسبابَ الغموضِ الذي دارَ حولَها.

يا ترى هل لذلك الرجلِ علاقةٌ بما أنا فيه الآن؟ أكادُ أجزمُ أنَّني سوفُ أجِنُّ، فكري مشوشٌ، تسارعتْ نبضاتُ قلبي، لا أعرفُ ماذا أفعلُ، دموعي تنزلُ دونَ استئذانٍ، أصواتٌ تقتربُ من البابِ، الظلامُ الدامسُ يَحُولُ دون معرفةِ القادمينَ، لا أعرفُ كم عددُ الذين أحاطوا بيّ، أحاولُ أن أتجلَّدَ، شخصٌ يقفُ خلفي ضربَني بقوةٍ وقال: أسمعْ كلامَ سيدي.

– حاضر.

صوتٌ جَهْوَريٌ فيه بحةٌ قال: التحقيقاتُ الأمنيةُ تقول: أنَّكَ طالبُ كليةٍ وقريبٌ تَخرّجَكَ وأكيدٌ مستقبلُكَ أهمُّ شيءٍ عندكَ؟

- نعم صحيح.
- وطبعاً مستقبلُكَ أهمُّ من ذكرى؟
- ذكرى؟
- نعم ذكرى، التي يجبْ عليكَ نسيانَها للأبدِ.
- لماذا أستاذ؟
- أسمعْ... أنت تجاوزت الخطوطَ الحمراءَ في علاقتِكَ مع ذكرى، هذه الفتاةُ بنتُ قياديٍ كبيرٍ في الدولةِ، وعلاقتُكَ بها مستحيلةٌ، ولا خيارَ أمامَكَ مطلقاً.
- أستاذ أرجوكَ.
– لا تقل أستاذ... أسمعْ جيداً ولا تتفوَّهْ بكلمةٍ واحدةٍ أبداً... قد تم نقلُكَ إلى جامعةِ الموصلِ، ستُكمِلُ دراستَكَ هناك، وعليك أن تنسى ذكرى... أو نرسلَكَ إلى ما وراءِ الشمسِ.
في طريقي إلى شارعِ المتنبي، وقفتُ فوق جسرِ الشهداء، أنظرُ إلى النوارسِ وهي تعانقُ الحريةَ، أسألُ نفسي هل أنا جبانٌ؟ مضتْ سنتان لم أرَ فيها ذكرى، خوفي أبعدني عنها.
بعد سقوطِ النظامِ السابقِ، بحثتُ عنها كثيراً، سألتُ زملائي في الكليةِ دونَ جدوى، حتى الطريقُ إلى المتنبي يذكرُني بها، مراتٌ عديدةٌ كنّا معاً نتجولُ بين المكتباتِ،

أمامَ مقهى (الشابندر) وقفتُ أتذكرُها، صوتُها الجميلُ يرِنُّ في أذني؛ التفتْ... رأيتُها تبتسمُ في وجهي... دمعاتُها نزلتْ على خديّها مثلَ اللؤلؤِ، مسكتُ يديها وقد خيَّمَ الصمتُ في لحظاتٍ لا تُصدَّقُ، تمنيتُ ضمَّها إلى صدري، ثمَّ صرختُ متلهفاً: أنتِ... أنتِ حبيبتي، من الآن لن تكوني ذكرى؛ أنتِ إيناس حياتي للأبد.

لكنَّ قوةَ ارتطامي بالعربةِ أسقطتني أرضاً، أفقتُ من حُلُمِ اليقظةِ، فتعالى صوتُ صاحبِ العربةِ الخشبيةِ: (أنتَ أعمى ما تشوف، اشبيك واكفْ جنك صنم؟)... عذوبةُ الحُلمِ جعلتني ابتسمُ، وظلَّ الأملُ رفيقَ أيامي القادمةَ.

عنق الزجاجة

جلسَ في محراب عينيهْا يعتِّق الصهباءَ في كأسهِ الهلامي، ينظر نحو أفق الوادي السحيق، لا يجدُ فيه غيرَ أشلاء بعثرَها الزمن، يفوح منِها عطر الموت الرهيب على حافةِ هاويةِ الانهيار، ذلكَ الوادي يعجُّ بالنعيق، أشباح الريحِ تغزوهُ على شكل زوابع تطاول السماءَ المفتوحةِ، يحاول الانتحار داخلها، أو الطيرانَ نحو العدمِ المجهولِ.

ليتَ أمي لم تلدني...!

دندنة قيثارة الوجد الأولى... عوق الفكر اللامحدود، صمتُ الليالي الجديدةِ يتلاعب بالمحظورِ، ثأليل الروح تنغمسُ في الحضيضِ، لا وجودَ للفرص الضائعة، السماءُ تمطر أعاصير تعكس صورَ الماضي، التعاسةُ والنجاحُ في بوتقة واحدة، فقط السقوطُ يحققُ الحرية.

يسمع صوت زاحف مِن خارج عالمه يقول:

- سيدي حانَ الوقت لتصير واقعا خارج الحانة.

بالكاد تحملُه قدماه نحو الخارج، ساعده ذلك النادل.

إلى حافةِ نهر النسيانِ ذهب يترنح، يكاد يلامس الأرض، أخيرا انبطحتْ معه الذكريات تلامس حواس التراب،

استنشق الصعيد الذي اخترق حجب تلافيف المعقول، فأسدل ستار العتمة على شبح جسد مُسجى.

في الصباح الباكرٍ آفاق من سكر الهمومِ على أُنشودة المزامير، وقفَ على قدميهِ، مَشى نحو الواقع الذي يعكس الحقيقةَ التي يأبى تصديقَها.

دخل إلى عنقِ الزجاجةِ يلوي على عجل يقصد الحمّام، في بداية الممر تقف أمامه تنظر إليه بقلب منكسر، قالت والكلمات تتدحرج مع الدمعِ المنهمر:

- بُني إلى متى تبقى تقلب بكَ الريح كأنَك هشيم تذروه حيث تشاء؟.

- أمي... وهل أنا موجود؟... هل ما زلت تأملين عودةَ ميت دفن مع الموتى؟.

- بني لكنك ما تزال تتنفس الهواء والإنصاف هو الرضوخ للواقع وتقبل الحقيقة مهما كانت الأسباب صادمة.

تركها تتُمتم بكلمات، ثم وقفَ يغسل شعره الذي ملئ بحبيبات التراب، أخذ يسأل نفسه هل أنا حي؟... أنا جسد بلا روحٍ، روحي رحلت معها ومعهم نحو الغرب... لكن لماذا أنا هنا بجسدي الممزق؟... كم أنت غبي أيها الجسدُ اللعين، تركتهم يرحلونَ بأجسادهم المقطعة، وأنت قاومت الموت السخيف الذي انهزمَ أمامكَ، يا ليت

كنت معهم قرب الجحيم المنفلق من ذلك الجسد اللعين الذي تناثر قطعاً حديدية قطَّعت أوصالَهم.
على رنين هاتفه المحمول استيقظَ باكرا، قادَ سيارتَه على أملِ الوصول إلى محل عمله قبل ازدحام الطرقات، فمدينةُ الأشباح ليلا تعجُّ بالضجيج نهارا، مع الجدران (الكونكريتية) يستحيل الولوج إلى
الطرقات والخروجِ منها بيسر، على بعد أمتار يرى حبيبتهُ وهي تعبر الشارعَ، أتت سيارة مسرعة دعستها وهربت نحو المجهول، منظرها أعاد ذاكرةَ الألم، نزل يعدو بسرعة نحوها!... فقدَ التركيز مع الذهول المجنون، وقفَ ينظر إليها... صاح هي... هي...! حملها إلى سيارتِهِ، لم ينتظر سيارةَ الإسعاف، انطلق بها إلى أقرب مشفى، حركةٌ تصاعدية تعجُّ في ردهة الطوارئ، تناولتها الأيادي.
جلس أمامَ باب غرفة العمليات الكبرى، دموعه تتسلل من محجريه، روحه تصارع رهبةَ الانتظار، اتصل بأمه.
- أمي لقد وجدتها؟.
- من هي؟.
- أمل.
- بُني خوفي أن تكون قد جننت لفراقها؟.
- أمي أنها عادت من جديد وعادت معها روحي الميتة.

- ابني أين أنت؟.
- أمي أنت طاهرة، هي تحتاج إلى دعائك.
مضت عقارب الساعة وهي تلدغ جسده، تجاوزت مرحلةَ الخطر، فتحت عينيها، رأت وجهه الشاحب، ابتسامته اختلطت مع دموع الفرح، همست إليه:
- أنت من أنقذني؟.
- القدرُ من أنقذكِ وأنا وسيطٌ فقط.
ابتسمت وغفت على حلم يغوص بالأمل، يحقق له السعادةَ بعد الفقدِ والضياع الرهيب.

ذئاب رحيمة

أنظر إلى أكبادي الأربعة وهم يلعبون ويمرحون أمام بيتنا الطيني في قريتنا الواقعة على حدود الموصل، ضحكاتهم البريئة لا تعرف معنى للخوف أو للقلق، القرى القريبة منا قد نالتها هجمات وحشية، هجرها أهلها خوفا على أرواحهم، خطر قريب يتربص بنا ريب المنون، يحز الخوف في شرايين قلبي، زوجي يقاتل على ضفة قريتنا الصغيرة مع إخوانه الشجعان.. طيف ذكرياتي أعاد صورة من الأيام الماضية.

حين حمل سلاحه والغضب يتطاير شررا، أعمدة الدخان تتصاعد في الأفق.. في باحة الدار جثوت على ركبتي متوسلة: حبيبي إلى أين تذهب وتتركني؟

فأجاب والدموع تترقرق في عينيه: حبيبتي أنت شرفي وعزي، من يدافع عنك غيري، دعيني أذهب قبل أن تصبحين أسيرة بيد تلك الوحوش.

تناثرت دموعي فوق أثار قدميه، لا أحساس بالأمان من دونه، الخيمة بلا عمود تسقط فوق رؤوس أهلها.

دوي انفجار القنابل سرقني من لحظة الطيف، هاج بي الفزع، حرك الرعب جسدي الخاوي، صرخات أطفالي تعالت في باحة الدار، أسرعت إليهم بأوصال ترتجف صحت بهم: ادخلوا للدار بسرعة.

جلسوا حولي يتساءلون: ماما ما هذه الأصوات؟.

فأوهمتهم أن هذا صوت الرعد في السماء.

هز أحمد رأسه معارضا:

- لا توجد غيوم في السماء والشمس مشرقة فوق رؤوسنا يا أمي.

أسكتهم بذريعة أخرى، فصمت أحمد مع عدم قناعته.

سكن خوفهم وبدأوا باللعب، أسرعت إلى سطح الدار، أنظر إلى أطراف قريتي.. المعركة حامية، رجالنا صامدون رغم كثافة العدو وقوة القصف، رجعت إلى الغرفة والخوف نار تشتعل في أعماقي.

سمعنا صوت الباب الخارجي وهو يصطدم بقوة مع وقع أقدام تدخل إلى باحة البيت؛ أثار هذا خوفنا من جديد... لحظات، وقف أمامنا وهو يمسح العرق عن جبينه.. قفزنا جميعا من مكاننا وأسرعنا إليه بفرحة عارمة.

عناق وتقبيل، أشواق تنزف ألم الفراق، أخذني إلى غرفة منفردة همس:

- الخطر يحيط بأسوار قريتنا، علي العودة إلى ساحة المعركة.

فأجبت بدهشة: ومن لي وللأطفال؟.

قال بألم: إن تركت ساحة النزال فسوف تكونين سبية عند داعش.

- سأعود لأخذكم خارج القرية.

احتضن الأطفال يقبلهم، يودعهم على مضض، بالكاد أفلت يدي من عناق حار، قلب يرتجف من مصير مجهول، تمضي الدقائق عقارب تدق ناقوس الخطر، مضت ساعات أخرى، ما زلت أتأمل عودته، الليل وحش أسود كاسر، أزيز الرصاص والانفجارات تقترب أكثر من ذي قبل، أعياني الوسن فأغمضت عيني برهة، أصوات الرصاص بالقرب من باب الدار أفزعني؛ نهضت بسرعة أتطلع الحال... وقفت خلف الباب، أصوات رجال غريبة... أسرعت إلى الغرفة، أيقظت الأطفال وخرجنا من الباب الخلفي، في ظلام الليل؛ همت على وجهي، هاربة مرعوبة من المصير الأسود، ركضت على أرض جرداء، وحوش بشرية تريد اختطافي، دقائق قليلة أحاطت بنا ضحكات تثير الاشمئزاز، أقترب أحدهم مني، أخرجت تلك السكين التي حملتها معي، حاولت ضرب ذلك اللئيم

الذي تفادى الضربة، سقط السكين من يدي، أسرعت إليه؛ سبقني لئيم ثان خطفه من أمامي، داخلني اليأس فاحتضنت أطفالي بجسد يهتز من الرعب، تساقطت دموعي على ذلك السكين، آنى لي بسكين اغرسه في قلبي، عاهدت نفسي أن لا يمسسني قذر، لا اعرف أين تعلق فؤادي، أبصرت نور في السماء ينبثق منه الأمل، صرخت بقوة يا رب إليك هربت وعندك لجأت...

ذئاب تعوي، تركض بسرعة قادمة نحو الوحوش البشرية؛ أخذهم الرعب، تعالت أصواتهم ولاذوا بالفرار كأنهم جرذان؛ فركت عينيّ والذهول يجتاح عقلي، نظرت إلى السماء بدموع الشكر، أسرعت أركض مع أطفالي في الاتجاه المعاكس، وجدت نفسي على قارعة الطريق، أحاطت بنا سيارات ترجل منها رجال مدججون بالسلاح، قال أحدهم:

- أختاه لا تخافي نحن أخوتك من الحشد الشعبي.

أحسست بالأمان فسقطت مغشيا علي.

عروس شنكَال

تحت الأشجار المثمرة، نمت وردةٌ حمراءُ مشرقةٌ يفوح منها أريج بساتين سنجار، يشعُّ سناها كأنَّها نور الضحى، غصن بانٍ سقاه ذلك الأب الذي حنى الزمن قوامه، حيث أخذت منه الأرض قوَّةَ الشباب وروح الحبيبة التي فارقها بعد سنواتٍ عشرٍ من الحبّ، رفض التخلي عن ذكراها، يرى في (شيلان)[1] صورة أمِّها، على الرغم من إلحاح بعض الأقارب عليه بالزواج مرَّةً أخرى، ظلَّ يرعى وردته الوحيدة ويسقيها من روحه وحنانه، ابنة العاشرة أصبحت ابنة العشرين.

الفرحة غمرتها مثل عطرٍ فاح أريجُه، تمشي مثل طاووسٍ بفستانها الفلكلوري ذي الألوان اللامعة، يملأها الفرح في حفل عرس صديقتها وابنة خالها، البهجة غمرت جميع الحضور، على عادة أهل (كوجو)، دقَّت الطبول وزمَّرت المزامير، وقفت مع الحضور ترقص (الدبكة)، تشابكت أيديهم حلقةً نصف دائريةٍ كأنما هم

---

(1) شيلان: اسم علم كردي ومعناه زهرة في حضن الجبل.

في مسرحٍ إغريقيٍّ من هذا الجمع الراقص، أحسَّت بحرارةٍ تتسرَّب إلى قلبها الصغير بقوَّة؛ من يد ذلك الشابِّ الذي أحسَّ بضربات قلبها الخافق، ينظر إليها، يحاول شمّ رحيقها العبق، كلما حاول التقرُّب منها؛ تفرُّ منه كما الغزال خجلاً، سأل عنها، لم يكن يتوقَّع أنَّ لها صلة قربى به من بعيد.

على عادتها تتجوَّل متبخترةً في ذلك البستان، عندما التفتت، وجدته يقف أمامها، كاد قلبها يتوقَّف من شدَّة فرح المفاجأة، كتمت فرحتها بقوَّة، مثل مسمارٍ ثُبِّتَ في لوحٍ خشبي، لم تتحرَّك من مكانها...

- آسف جداً لم أقصد إخافتَك.

تمالكت نفسها، حاولت أن تردَّ عليه فصمتت حياءً.

- إسمي (شيرو)[1]، تذكرينني؟... كنت في عرس قريبتك الخميس الماضي.

- نعم تذكَّرتُك.

- أنا سألت عنك وعرفت الكثير وأحببت أن ازوركم في بيتكم مع أهلي، فهل لديك مانع؟.

---

(1) شيرو: اسم علم كردي ومعناه أسد.

كلماته زادت من حرارة الموقف، احمرَّت وجنتاها، ثمَّ لاذت بالفرار، ابتسم وهو ينظر إلى ريمه الهاربة.
دخلت غرفتها، تضاربت الأفكار في رأسها، هل كان صادقاً في كلامه؟... ربما هو من الشباب الذين يصطادون في الماء العكر بحلاوة عباراتهم؟... حاولت جاهدةً نسيان ذلك الموقف دون جدوى. قضت نهارها في أعمال البيت حتى عاد أبوها.
بعد تناول وجبة العشاء، جلس يحدِّثها بنبرةٍ غريبة، بين الحقيقة والوهم لحظاتٌ تكشف النقاب عن وجه المستور.
- هل تعرفين شيرو بن خديدة؟.
- بابا سؤالك غريب!!.
- ابنتي... شيرو شابٌّ طيِّبٌ وذو أخلاقٍ عالية، واليوم عرفت أنه من أقاربي، ثمَّ إنه تقدَّم لخطبتك، فما رأيك؟.
الخجل والفرحة بانا في عينيها النرجسيَّتين، أسيلاها تورَّدا كالجلّنار، لا تعرف ما تقول، المفاجأة جعلتها تركض إلى غرفتها، شعورٌ لا يوصف، أحاسيس لا يعرفها غير قلوب العاشقين، تنظر إلى النجوم من خلال نافذتها، تناجي الليل الغافي بين خصلات شعرها الأليل، صورته لا تفارق خيالها الواله، تحاول النوم؛ لكنَّ صور العرس

تطرد الوسن، حفلٌ بهيجٌ تجد نفسها فيه سيدة الفراشات، شيرو يقف مبتهجاً ممسكاً بيدها...
لحظاتٌ سعيدةٌ تجمعها مع الحبيب، يحضنها، يضمُّها بين ذراعيه بحنان، يضع رأسها على صدره، تغفو في رياض عشقه...
فراشةً تطوف بين رياحين الزهور.
لا تعلم كم غفت في حضن الأحلام.
صوت الرصاص أفزعها؛ قفزت من سريرها، أخذت جوّالها، نظرت إلى الساعة، الوقت قارب شروق الشمس، صوت الرصاص يزداد قرباً منها، أسرعت تبحث عن أبيها، وجدته يقف في باحة الدار...
- بابا ما هذا الرصاص؟.
- لا تخافي، انتظري هنا سوف أتفقد الأمر.
- بابا أرجوك لا تتأخَّر... أنا خائفة.
- لا تخافي لن أتأخَّر.
فتح باب داره، شاهد وجوهاً غريبة، تكشّر عن أنيابها بشرٍّ محدق، تنبعث منها روائح الموت، لحىً طويلة كثة شعثاء، منظرها يثير القرف، يحملون أنواعاً من الأسلحة.
أغلق باب داره وصاح بصوتٍ عالٍ باللغة الكردية: شيلان اهربي من باب الحديقة الخلفيّ إلى جبل سنجار.

أصداءُ كلمات أبيها هزَّت كيانها وطوت سجلَّ الفرح على أعتاب لحظاتٍ مجهولةٍ قادمة.
الحيرة جمَّدت أوصالها، أأترك أبي بين مخالب غريبة؟... ماذا سوف يكون مصيره؟... أبي رجلٌ كبيرٌ قد لا يؤذونه.
على دقّات ناقوس الخطر أسرعت تركض إلى الحديقة الخلفية، فتحت الباب الخلفيّ وخرجت.
وقف يحاول منع دخول الدواعش إلى داره، كلُّ همِّه أن تلوذ حبيبته بالفرار وتنجو بنفسها... محاولاتٌ مستميتةٌ أتاحت الوقت للنجاة، أسفرت عن رصاصاتٍ عمياء اخترقت قلبه.
حافيةَ القدمين ما تزال تركض خوفاً في اتجاه الجبل، دموعها تنزف فوق خدَّيها مثل دماء أبيها النازفة فوق عتبة باب الدار.
من خلفها صوتٌ ينادي شيلان؛ شيلان، التفتت... تسمَّرت في مكانها، لم تتوقَّع رؤيته، فتحت ذراعيها، عناقٌ لاإراديٌّ أطاح بالخجل، وضعت رأسها على صدره، جرت دموعها، اختفت في حضن الأمل، تمنَّت أن تصحوَ من هذا الكابوس المخيف، لتجد نفسها في فستان الزفاف...

وضع يده في يدها... سحبها مهرولاً، خفق قلبها، قالت: شيرو... ما بك؟.

- لا تلتفتي إلى الوراء واركضي بسرعة.

- لماذا؟.

- لا تخافي سوف ننجو... الدواعش خلفنا... أنا أحمل معي مسدَّساً ورمانةً يدوية، سوف أدافع عنك بروحي.

لحظاتٌ لاهثةٌ تزاوجت مع الخوف، الرصاص أزيزه خلفهم، انزلقت يده، سقط، تدحرج أمامها، انكفأ على وجهه، ظنَّت أنه تعثَّر، انحنت فوقه تحاول مساعدته على الوقوف، دماءٌ تتدفق بسرعةٍ من ظهره، لا تعرف ما تفعل، تحاول إيقاف شلال الدم دون جدوى، أدارته... وضعت يدها فوق صدره، تحسَّست قلبه الضعيف، نظر إليها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، تمتم، "شيلان أحبُّك... أحب... أح..." انقطع صوته؛ بكت...

أرجوك لا تتركني، وضعت خدَّها فوق خدِّه، قبَّلته، شعرت بروحه تنساب مع دموعها الجارية، أحسَّت بأشخاصٍ يحيطون بها...

مدَّت يدها إلى جيبه، أخرجت الرمانة وأخفتها بكلتا يديها تحت بطنها وسكنت، سمعت أحداً منهم يقول:

خذوا الفتاة فإنها على قيد الحياة.

اجتمعوا حولها، سحبوها بقوَّة؛ سحبت مفتاح النابض ومدَّت يديها إليهم...
خلال لحظاتٍ تناثرت أجسادهم، ونبتت هي كزهرةٍ آمنةٍ بين أحضان صخور جبل سنجار.

أوتار العود

فوق خشبة المسرح وقفت؛ بروح تعانق المجد، مع أبطال مسرحية عن فلسطين المحتلة، (عودي) وألحاني كان لهما الدور الكبير في إبهاج الحضور، الزهو وروح الشباب زاد من ألق الموقف. هاجس يعانق السماء مبتهجا، زملائي الفنانون تتراقص أرواحهم مع تصفيق الجمهور، مع غلق ستار المسرح بدأت تبادل القبلات والتهاني. اليوم انتصرنا على جميع العقبات، مستقبل جميل فتح لنا ذراعيه، صدره الشفيف أخذنا بحضنه البارد.

شوارع (عمان) تماوجت مع فرحنا، لم تكن الحفلة الأولى لكنها الحفلة الأهم. وضعت رأسي فوق الوسادة، أحلام وردية حليفة الليلة. في صباح اليوم التالي رن الهاتف:

- الووو...

- مرحبا، نصير؟

- أهلا وسهلا، من معي؟

- أنا مدير مكتب السفارة العراقية، سيادة السفير يرغب بلقائك عصر هذا اليوم الساعة الخامسة.

- خيرا إن شاء الله، هل تعلم ماذا يريد مني سعادة السفير؟
- نعم، إنه يريد أن يبارك لك على نجاحك.
على إيقاع البهجة والسرور تتراقص نياط قلبي، حكومتي تفتخر بي وتبارك موهبتي، لا شك أن السفارة تريد تكريمي. أخبرت زملائي بالخبر المفرح، قبل حلول الساعة الخامسة جهزت نفسي للحفل المبهج، نظرت إلى المرآة شاهدت نفسي كأنني عريس في ساعة زفافه، على باب السفارة استقبلني رجل، رحب بي كثيرا ثم رافقني إلى غرفة السفير، عندما دخلنا الغرفة قام السفير برسم ابتسامة عريضة مع ترحيب جاف محى تلك الابتسامة، طلب مني الجلوس، وقال:
- أنت فنان موهوب، لكن هذا لا يمنحك الحق بسب السيد الرئيس صدام حسين!.
استحال العرس إلى عتمة ذات فجوة ابتلعت الفرح وأثارت في نفسي الخوف والغضب، قلت بصوت مرتفع:
- ما هذا الكلام، متى سببت الرئيس؟ هل أنت جاد بكلامك؟! كنت أظن إنك طلبت لقائي تكريما لي.
- نصير... أنت اقترفت ذنبا كبيرا، وسوف تُرحل إلى بغداد حتى تحاسب وتنال عقابك.

- أبدا، هذا لن يكون!.
أسرعت إلى الباب، أريد الخروج من سجن قبض روحي بين جدرانه، فتحت الباب؛ فوجدت في وجهي ستة رجال أحاطوا بي من أربع جهات. ضحكات السفير كانت أكثر استفزازا في خضم تسارع الأحداث. في سيارة السفارة كنت أفكر في طريق الخلاص؛ على الرغم من فكري المشوش. أمام أبواب المطار توقفت السيارة ترجل ركابها، أمسك بيدي أحدهم وأمرني بالنزول، حاولت البقاء، لكن خشيت منهم الاعتداء والإهانة، نزلت ومشيت معهم إلى قاعة المطار، صادفني صديق من الفرقة الموسيقية، عانقني بشوق؛ فهمست بأذنه:
- هؤلاء الرجال من أمن صدام سوف يأخذوني إلى بغداد، عليك الاتصال بسرعة بجميع الزملاء والفنانين للحضور، لعلك تنقذني.
بعد أقل من نصف ساعة دخل أصدقائي من أعضاء الفرقة الموسيقية ومعهم فنانون من الأردن، أحاط بي الأصدقاء من كل جانب؛ فشعرت بالقوة وارتفع صوتي:
- هؤلاء مجرمون يحملون السلاح، سوف يقتلونني.
رفعت سترة رجل الأمن الذي كان يقف بقربي، وكشفت عن سلاحه. ارتفعت أصوات أصحابي، صخب واحتجاج

عم المكان، خلال لحظات ظهر (مازن) وهو قنصل في السفارة العراقية؛ كان نسيبا لأخي الأكبر، اقترب مني وسلم علي، همس في أذني:

- نصير... عليك التزام الهدوء، الغضب لا ينفع، سوف يتخذ ضدك كل ما يصدر منك.

حاولت جاهدا التماسك، هدأت من روعي، فطلب مني أحد الضباط جواز سفري، فرفضت وكان باعتقادي أنهم لا يستطيعون تسفيري بدون الجواز، سكت الضابط، قفز مازن، وأخذني على انفراد:

- نصير... أرجوك، أعطه الجواز من فضلك.

- لا، لن أعطيه جواز سفري، ولن أسافر.

- نصير... أرجوك، أعطني جوازك، من مصلحتك يا أخي، وإلا سوف يوقعون وثيقة حمراء بدل الجواز، وهذا يعني الحكم عليك بالإعدام مباشرة عند وصولك إلى بغداد.

غثيان بدأ يدب في رأسي، كلمات مازن حطمت أعصابي، شلل اجتاح كياني، أعطيته الجواز، ولم أهمس بكلمة. حبل المشنقة يتدلى أمامي، لا أعرف متى يخنق عنقي. تمر ساعات وأيام ثقيلة أمام ناظري، عمري يتصدع بين جدران أربعة، غرفة ثلاثة في أربعة أمتار، يقبع داخلها خمسة وثلاثون رجلا، لا أعرف للنهار أو الليل وقتا، على

مدى ثلاثة أسابيع في دائرة أمن بغداد تهشمت عظامي، مع سيل من التحقيقات اليومية، كان آخرها كلام الضابط:

- أنت بريء... سوف تخرج من السجن، بعد ترحيلك إلى سجن (أبو غريب).

في الطريق، أحسست بالفرج عندما شممت هواء بغداد الصافي، وصلنا إلى أبواب، اقتادونا إلى قاعة كبيرة، ضمت بين جدرانها حوالي أربعمائة فرد، رغم كثرة السجناء؛ كان الصمت يغرق المكان بالسكون، الخوف والحذر يعم النزلاء، والمصير يعلمه البعض، وكنت من البعض الذي لا يعلم.

مع إشراقة الشمس؛ ترتفع زقزقة العصافير، ويعلو صراخ الحراس؛ يستيقظ الجميع على وقع ضربات العصي، تنذر الجميع للإسراع بالخروج إلى ساحة يصطف فيها السجناء، صاح ضابط:

- المحكومون؛ يقفون بالجهة اليمنى... وغير المحكومين؛ يقفون بالجهة اليسرى.

لم أتردد بالذهاب إلى الجهة اليسرى، وقفت معهم، ثم صاح ضابط يحمل بين يديه سجلا:

ـ أحمد...

كلمة؛ أسقطت على الأرض أربعة رجال، وما زال الضابط يكمل الاسم:

- أحمد حسين عبد الواحد محمد...

رفع أحدهم يده، وبالكاد يحمله السجناء ليقف على قدميه؛ يودعونه. أكثر من ساعة حتى اكتمل العدد؛ عشرة سجناء أخذوا حيث لا أعلم. نظر الضابط لي وقال:

- أنت... مو نصير (أبو العود)؟.

- نعم، أنا هو.

- لعد ليش واكف مع غير المحكومين؟.

- أنا، لم أدخل إلى المحكمة، ولم أعرض على الحاكم، ولم يصدر بحقي حكم.

- يابه، أنت محكوم بالإعدام... ومن باجر تقف مع المحكومين.

كلماته نزلت فوق رأسي كأنها صاعقة، أصبحت أيامي معدودة في الحياة، مائة وسبعون يوما أنتظر الموت، لم أكن في سجن أبو غريب كما قالوا لي ولم يبق من السجناء في سجن رقم واحد؛ سوى ثلاثة أنا أحدهم.

كانت المذيعة في هذا اللقاء؛ مصدومة إلى حد الدهشة، تنظر لي والدموع تترقرق في عينيها، قاومت انكسارات روحها؛ وتوجهت لي بالسؤال مرة أخرى:

- وكيف نجوت من عقوبة الإعدام؟!

ابتسمت... وكفكفت جراحات الماضي، وقلت بنبرة يشوبها الفرح والحزن:

- هذه قصة أخرى... تحتاج إلى وقت آخر.

طائر الجنة

مخالب الذّكريات تؤلم قلبها، تحفر أخاديد الموت على سنين الحياة، تحاول الهرب من أنفاس نتنة ولحى طويلة عفنة، تتعثر بأذيالها، تنهض بسرعة لتقع مرة أخرى بين حوافرهم، ترى لعابهم يسيل مثل الزبد، نظراتهم تأكل جسدها المرهق، تحاول الدفاع عن عفتها، تضربهم... تركلهم... الكثرة تغلب القلة، تصرخ بخوف، تستيقظُ من نومها مذعورة، تنحني على طفلها، تتحسّس جسده الغض، حرارته المرتفعة انخفضت، انحدرت دموعها فوق خديها، الهم والحزن كانا طول الطّريق يعصران روحها المنكوبة، تحاول أن تصحو من سكرة الحدث، تعوذث بالله من كابوسها المرعب، رفعت يديها نحو السّماء وتمتمت خوفا من المجهول، كان زوجها وأبناؤها لازالوا نيام في العراء، انتبهت إلى بزوغ الفجر فأيقظتهم لمواصلة السير نحو (أربيل)، طريق تحفّه المخاطر، ساروا بين صعود ونزول في متعرجات الجبال وأوديتها السحيقة، بعد جهد جهيد حطوا إقدامهم على الطريق المعبّدة بالإسفلت، جلسوا

ليستريحوا قليلاً، لحظات وقفت عندهم سيارة أخذتهم إلى المدينة.

كانت ظروف اللاجئين في المخيمات لا تطاق، البرد يجمد أوصالهم، فكرة الهجرة بعد مرور أكثر من سنة تراود (سرمد) بقوة.

الأيام تمر بطيئة مثل غيمة صيف عابرة، انقطاع الأمل بالعودة إلى ديارهم زاد من إصراره على ترك بلده، أصبح دائم الشرود... لاحظت (سارة) هذه العلامات على تقاسيمِ وجهه، سألته عن سبب هذا الوجوم... قال:

ـ ما رأيك في الهجرة إلى بلاد أوروبا؟.

ابتسمت قائلة:

ـ لا أحب أرضا غير أرضي.

ـ وإلى متى نبقى في هذه الخيم؟... الأوضاع تزداد سوءًا في كل يوم... لاحظِ كم من العوائل تركوا مخيماتهم ووصلوا إلى دول أوروبا.

- حتى إن وافقت على فكرة السفر، كيف نسافر؟.

- عن طريق التهريب.

حينها تذكرت ذلك الحلم المزعج ثمّ صرخت:

- لا... لا تكرّر مثل هكذا فكرةٍ بعد الآن.

- لماذا الرفض... وهل نمضي بقيّة العمر في هذه الخيمة؟!.
- نصبر ربما الفرج قريب.
- صبري نفد، لم أعد أحتمل البقاء هنا أبداً.
- أنا خائفة... أطفالنا ما زالوا صغارا، وهذه الرحل محفوفةٌ بالمخاطر.
ألتزم الصمت... وبقي للحظات يحاول أن يقنعها بفكرة الهجرة سوية؛ أخيرا وافقت على مضض.
حملوا حقائبهم وانطلقوا في رحلة لا تخلو من مخاطر جديدة، أصبحوا خلالها تحت رحمة المهرّبين، قاسوا فيها الأمرين. ما أن وصلوا إلى تركيا واستنشقوا هوائها النقي، بهرهم جمال المدن وشوارعها، الأشجار والزهور تدغدغ قلوبهم بعبق الياسمين، مدينة رائعة تغفو على سواحل البحر القرمزي.
على ساحل البحرِ كانوا ينتظرون ركوب البحر الأبيض، المحطة القادمة إلى اليونان، كان يفكر كيف سيحتفل بشرب نخب سقراط مع شعلة أثينا. الأحلام وردية في بهرج المدن الماسية، الشوارع العاجية تنتظر وصولهم، أشجارها محملة بالجلنار، تلوح لهم بالترحيب الحار مع عناق الحوريّات، الجنة فتحت أبوابها لهم.

(بسام) الصغير كان يتمتع مع أخوته باللعب على رمال الشاطئ الناعمة، ساعة الصفر لا يعرفها سوى المهرّب، أكثر من أسبوع ينتظرون تلك اللحظات، عائلة (سرمد) في قلق وخوف؛ في لحظة ركوب القارب الذي امتلأ بالعوائل العراقية والسورية الهاربة من جحيمِ الجماعات المتوحشة.

القارب المطاطي بدأ يترنح تحت وطأة الثقل الذي صار فوقه في ذلك الليل الدامس، أمواج البحر تتلاطم مع بعضها، في العتمة لا يسمع الرّكاب غير صوت المحرك الصاخب، قلوب الجميع تخفق خوفا من السقوط، الربان أطفأ المحرّك ليقلل ردّة الفعل، لكن هيجان المياه كان يزداد قوة، انقلب القارب وبدأ الصراخ، (سرمد) كان يمسك هو وزوجته بأطفالهم الثلاثة قبل سقوطهم في الماء، شدّة الصدمة أفقدتهم التماسك، الجميع أصبحوا وسط الأمواج الغاضبة، (بسام) الصغير طاف به الماء والقى به على سواحل اليونان؛ وجدوه يرقد على وجهه تحتضنه الرمال الباردة.

رقية العصر

على ضوء شمس الصباح، يمشط شعرها المنساب كأنه خصلة من الليل، يلفه بقدرة فنان تعلّم حياكة الشعر على يديها، تحرك رأسها زهوا بجدائلها، تلتفت إليه تعانقه.. تطبع قبلاتها فوق وجنتيه، كلماته الأخيرة: عند عودتي سأجلب لك ما تتمنين... تجذرت في خيالها الغض، تطير على أجنحة الشمس، السعادة تتراقص في قلبها الصغير. تموج به الذكريات القريبة في ساعة الراحة بعد يوم قاس من المعركة الحامية، (آيات) تعزف موسيقى الشوق على أوتار قلبه، الحنين يداعب خدودها المتوردة، نغمات كلامها لا يفارق سمعه على الرغم من أزيز الرصاص ودوي انفلاق القذائف... عاد ليتذكر تلك الليلة أحس بقرب اللقاء، علامات الولادة كانت ظاهرة على محيا زوجته الحبيبة، الطريق إلى المشفى محفوف بالخوف والقلق، يقف أمام غرفة العمليات... الانتظار يمتص رحيقا للروح، ينهش القلب بأظافره الحادة، آيات البشرى لاحت بالأفق، صرختها هزت كيانه المتعب، تلك الممرضة زفت الفرحة إليه... انطلق إلى الفراغ في ليله

الداجن، جثى على ركبتيه يرفع يدي الابتهال بالتهليل والشكر، يسجد أمام القدر المقدس، تختلط دموع الفرحة مع التراب... يرن صوت هاتفه النقال فيستيقظ من الذكرى، يبتسم عندما يرى اسم آيات قد رجع به من ذكرى ولادتها قبل إحدى عشرة سنة مضت مثل النسيم:

- بابا حبيبي كيف حالك مشتاقة لك متى تأتي؟.

- الحمد لله بخير بفضل دعواتك، وأنا مشتاق لك أكثر حبيبتي، عن قريب إجازتي.

- تأتي بالسلامة بابا.

ودعها وأغلق مع ابتسامة عريضة... يحدث نفسه: الآن سوف تخلد آياتي إلى النوم.

مع إطلالة الفجر وأداء الصلاة جاءت ساعة الصفر لتنفيذ خطة الهجوم على أوكار المغتصبين، كالمعتاد المقدم إحسان فارس الميدان بلا منازع، شجاعته وإقدامه تبثان روح الفداء وطلب النصر في جنود فصيلة النشامى، كالليث يقتحم سوح الوغى لا يهاب المخاطر، يزأر مع أزيز الرصاص وانفلاق القذائف خوفا على رفاقه، قوات (العقرب) الصامدة، تثير الرعب في نفوس العدو، اسمه كابوس أسود عند (الدواعش)... بقيادته استطاع النفوذ إلى عقر دارهم وتفكيك خلاياهم... بعد المواجهة

الشرسة مع العدو، انهارت أمامهم العقبات، فلول الشراذم هربت للبيوت القريبة منها، اتخذت أهلها دروع بشرية تحتمي بها... أصدر الأمر إلى جنوده بالانسحاب خوفا على أرواح الأبرياء، من بعيد شاهد (آيات) تركض والخوف يلحقها مكشرا عن أنيابه، دموعها تختلط مع غبار الأديم المتصاعد فتح ذراعيه، ضمها إلى صدره، غمرها بحنانه... هدأ من روعها:

- حبيبتي لا تخافي... أين اهلك؟.

- عمو أهلي بالبيت.

- لماذا خرجت من البيت في هذا الوقت الخطر؟.

- عمو أنا هربت خوفا من المسلحين عندما دخلوا بيتنا دون استئذان.

كان يتحدث معها والدموع تنهمر من عينيه، يرى وجه آيات في ملامحها، يحدث نفسه: "هي في عمر أبنتي الحبيبة، ما ذنبها؟ والخوف يقطع أوصالها!... تلك الوحوش لا تعرف معنى البراءة... تبا لهم من نفوس شريرة".

قضى ليلته الطويلة برفقة (نسمة) يخفف عنها حمّى الخوف والبعد عن حضن الأم، اتصل بآيات وطلب منها

التحدث مع نسمة، حديث آيات خفف عنها كثيرا؛ فغطت بالنوم بعد يوم قاس.

أشرقت الشمس فكشفت عن بقايا آثار العدو التخريبية في دور الأبرياء، أسرع إحسان بإيصال نسمة إلى حضن أمها، بعد الاطمئنان عاد إلى وحدته العسكرية، يشحذ الهمم ويخطط لضرب الهاربين، المعلومات الاستخبارية أفادت عن أماكن تواجد العدو في بعض الدور الخالية من أهلها، المداهمات المنظمة أوقعت الجرذان في أيدي قوات العقرب ومعهم أبطال الحشد الشعبي، شاهد إحسان أحد عناصر قواته يضرب رجل من الأسرى، أسرع إليه قائلا: (لا تضرب أسيرك... أن الأسير والجريح سقط وانتهت قوته... فلتكن أخلاقكم أخلاق الفرسان)، الإحسان جذوة من نور تماهى مع روحه الخيرة، يقدم الطعام بيده إلى أسيره كما ينقل الغذاء إلى أهل الأحياء المنكوبة، جلَّ سعادته ابتسامة طفل ودعاء امرأة وعناق شيخ تغمره الفرحة.

راهب الليل في الليل تتساقط دموعه، في النهار ضرغام لا يهاب ضراوة المعركة، وقف مع عناصر فوجه يمطرون الأعداء بسيل من القذائف، شاهد من بعيد انفجار لغم بواحد من رفاقه، فأسرع إلى نجدته على الرغم من

المخاطر، حمله فوق كتفه و أوصله إلى الوحدة الطبية المرافقة، بعد دقائق وصل إلى المقدمة يصرخ بصوته الجهوري، يبث الحماس في قلوب إخوانه الشجعان، لحظات النصر وحسم المعركة باتت قريبة، القدر رسم آيات الشهادة في الأفق، قذيفة الهاون سقطت بقربه، تشّحط بدمه وهو يردد {الحمد لله... بابا آيات شلون راح اعوفج... حبيبة بابا}.

ميدان المعركة تزلزل غضبا، يقذف بالحمم واللهب فوق رؤوس خوارج العصر، النصر كان حليف الحق، جنود الأيمان حملوا قائدهم فوق أعناقهم، بذلوا غاية الجهد في سبيل إسعاف أنسان عشقوا أخلاقه، النصر لا يأتي من دون تضحيات، الأمان في زمن الوحوش يحتاج إلى دماء، دموع الجنود تساقطت على فراق قائدهم، الجميع جلسوا عنده... تقبيلا وضم.

الفرحة غمرتها عندما أمسكت شهادتها ورأت درجاتها، قالت في نفسها: أبي سوف يفرح بنجاحي... الأولى على زميلاتي نتيجة يفتخر بها أبي الحبيب، على غير عادتها أسرعت بمشيتها قاصدة البيت، سوف أبشّر أمي بنجاحي، أمام الدار رأت اجتماع أعمامها وبعض من الأقارب والجيران، استقبلها عمها أحمد وضمها إلى

صدره وأجهش بالبكاء، أيقنت أن في السماء علامات تنذر بالفزع والحزن، دخلت إلى منزلها؛ شاهدت موت الفرح.

بعد إجراء مراسيم الجنازة، اقتضت العادة بمرورها على بيت الشهيد للوداع الأخير مع زوجه وأهله، آيات كانت تقف مذعورة من هول الحدث، بين الكابوس والحقيقة برزخ خفيف يتلاشى باليقظة، على الرغم من الصراخ والعويل واللطم على الخدود والصدور ما زال الذهول يفترس الواقع، تحركت آيات في خطوات مرتبكة... تنفض عن نفسها قيود الهلعة... اقتربت من التابوت وبدأت بالبكاء. علت صرخة من قلب يزفر بحرقة: {ولج آيات... ابوج مات... ابوج راح... بعد ماكو بابا}... كلمات خالتها رصاصات اخترقت قلبها الصغير، أظلمت الدنيا في عينيها، لا شيء ينهي مسلسل الرعب، بدأت عروقها تفقد حرارتها.

أخت كشفت النقاب عن أخيها، تبتغي تقبيله وتوديعه، بنت شاهدت وجه أبيها... صرخت: (بابا كوم ليش نايم؟... باباتي مو كتلي راح اجيبلج هدية عروسه... بابا أني مو حبيبتك... بابا لا تعوفني)، في الصرخة الثانية شهقت بقوة وسقطت فوق أبيها، صاحت أمها: أتركوها

تودع أبيها فأنها مشتاقة جدا إليه، عندما طال مكوثها فوق جثمان أبوها اضطربت النسوة فأسرعن إليها... وجهها المبتسم يشع بالسعادة والرضا، روحها أبت إلا أن تعانق روح حبيبها وتصعد معه إلى السماء.

عقدة الماضي

في غرفة الاستقبال ينتظر وصولها من الخارج، نار تشتعل في قلبه... تسربت بسرعة البرق إلى كامل جسده، يعضُّ على نواجذه، ومن تحت الهشيمِ يخرج الغول، وحش لا يعرف الشفقة، الانتقام والتشفي يرضي روحه المخدوعة،... يحدِّث نفسه:

- تلك البلهاء تتراقص فوق حبال الغباء، تظن أن المكر سيطول، لا تعرف أنني رجل لا يخدع.

- تريث يا رجل... أنك تظلم حبيبتك، خوفك عليها جعلك كثير الشك.

دخلت تتهادى في مشيتها، تهز جسدها المكتنز كأنها تعزف على أوتار الشكوك، تنظر إليه بابتسامة شفافة تمتص غضب البركان:

- حبيبي آسفة تأخرت في صالون التجميل.

- حبيبتي اشتقت إليك... حاولي في المرة القادمة أن لا يطول غيابك خارج البيت.

تقدمت خطوات... جثت أمامه على ركبتيها، أخذت يده تقبلها بحنان، عزفت على قيثارة الوجد، خلال لحظات

أشعلت شموع الفرح بمناسبة مرور عام على زواجهما، امرأة تملك زمام المبادرة، يسبح الشوق في أحضانها إلى حد السكون، ينعم بالرضا فيغفو ريح الغضب.

وضعت رأسها فوق المخدة، فتحت نافذة الذكريات على الماضي الجميل، قلبها العاشق يقفز طربا عندما ترى أحمد يسير في الشارع، تلوح له بيدها، يدخل إلى بيته بسرعة، يتسلق سلّم السطح في لحظات يضع يديه في يديها، تتمنى أن يزول ذلك الجدار الذي يحول بينهما، يسمع صوتها يقفز بسرعة، تجد نفسها بين ذراعيه، تتيه في عتمة الحب والظلام الدامس... تهمس في نفسها:

- لولا ذلك الجسد الحقير الذي فجّر نفسه بسيارة مفخخة في وسط عمال أجرة البناء لكنت الآن مع حبيبي الأول تحت سقف واحد... لكن القدر منحني فرصة الحب الثانية، رغم السعادة الدنيا لا تعرف الرحمة، التعاسة رفيقة روحي، جروحي تنزف هموماً، مرارة الماضي تحول دون سعادتي مع زوجي الذي أحبني بصدق، هو يستحق إخلاصي، خسارته فكرة تقض مضجعي... أنى لي الخلاص من ذلك الرجل الذي حوّل حياتي إلى جحيم... كم هو جبانا يستغل امرأة.

طول الليل تتقلب في فراشها كأنها سمكة تحاول القفز إلى الماء، بالكاد استطاعت النوم بعد بزوغ الفجر، استيقظت متأخرة، القلق يثقل كاهلها، وجع الذكريات يرافقها حتى بعد أن أصبحت مرفهة.

تذكرت اليوم موعدها عصرا للقاء مع أمها.

بعد سيل من العناق والقبلات الحارة، جلست مع أمها التي بادرتها بالسؤال عن ماجد:

- هو بخير، لكن قلبي يرتجف من تصرفاته.

- هل عرف شيء عن أحمد؟.

- لا... لكن ذلك الحقير حسام، ما زال يبتزني بالصور والفيديو.

- كم مرة نصحتك أن تخبري زوجك بهذا الموضوع؟.

- أمي كيف أخبره!... ماجد غيور جدا، حبه لي يزيد من غيرته، أخاف أن يطلّقني!.

- وإلى متى تبقين تحت رحمة حسام؟.

- لا اعرف... ولم أعد أقوى على فراق ماجد... لا بد أن أجد الحل وأحمي علاقتي الزوجية.

رنَّ جهازها النقال، عرفت رقمه، أصفرَّ لون وجهها، ترددت قبل أن تجيبَ... بعد أخذ ورد، أغلقت والدموع تسيل فوق خديها، تندب حظها العاثر، حاولت أمها أن تهدأ من

روعها، صمتت على مضض تخنق الكمد في أخاديد الذكريات.

طول الطريق كانت تلتفت يمينا ويسارا، يتراءى لها خيال ماجد وهو يتعقبها من بعيد... في محل للتسوق وقف أمامها شبح الماضي، أرعبها الموقف أرادت صفعه بقوة، عضّت على غضبها بين الزحام، قبل أن تعطيه المال سألته:

- متى تخل سبيلي وتعتقني من حبالك؟.

- إن حصلت عليك يا عصفورتي الجميلة.

ارتبكت ورمت بوجهه النقود، أسرعت والدمع رفيقها، كانت تتمنى أن يبتلعه غول حتى تنعم بحياة هادئة، كفكفت دموعها بعد أن خطرت في بالها فكرة.

عاودت الاتصال به، اعتذرت له عن تصرفها، ثم اتفقت معه على موعد جديد.

خرجت مع إصرارها على وضعِ نهاية لمشكلتها، قادت سيارتها إلى مكان مقطوع لا يوجد فيه غير بيت مهجور، كان في حديقة البيت ينتظرها على أحر من الجمر، تخيلها وردة أرجوانية بين يديه، يفوح منها أريج الياسمين، بكلماته الرقيقة استقبلها، وقفت تتوسل إليه أن يتركها بسلام، يكفيك قد حصلت مني على أموال

كثيرة، كنت من أعز أصدقاء أحمد، أقسم بالله عليك أن تتركني... نظراته الوقحة قفزت إليها تريد احتواءها؛ (أنت أتيت برجليك)... خطواته السريعة حالت بينها وبين المسدس، أصبحت في قبضته تحاول الهرب دون فائدة، توسلت بتضرع مع صرخات اختلطت بدموعها... كادت الفأس تقع بالرأس...

رصاصات مفاجئة دوّت في المكان أسدلت الستار عن مصيرها الأسود، بالكاد تسحب جسدها المنهك من تحت جثته الهامدة، الصدمة حبست صوتها الرخيم، أصابها إغماء.

سحب الجثة ورماها في قبو المنزل، أغلق الباب وأسرع إليها، عندما أفاقت؛ وجدت نفسها في حضن زوجها الغيور.

حافة الانهيار

بين الصمت والهذيان يعالج صورا تتصارع على آثار خطوات مبعثرة في غرفته، صوت في داخله يصرخ: لِمَ أنا؟ ومن أنت؟ وماذا تريد مني؟ لماذا اخترت روحي؟ هل يعقل أنك أنا وأنا أنت؟.

يزداد صراعه، سكرات تنقله من زمن لآخر، تتداخل فيه الصور، وتزكم الماضي البعيد عبر بوابة شروق اللامعقول، يجد نفسه شخصا آخر لا ينتمي إلى هذا المكان، رجل يفتش عن ضحية بين أكوام ذكرياته، في ذات الوقت يرى كيان قد تعّود على الخيانة وموت الذات، على الرغم من رفضه الدخول إلى هذا العالم الغريب، يرى نفسه يعرف جميع من حوله، الأب والأم فيما مضى، والأخوة والحبيبة والحقيقة في هذا الزمن المريب.

ليلة ممطرة، شوارع المدينة شبه خالية، يقف عند مفترق طرق بجوار عمود النور، تراوده نفسه عن التراجع، يتمتم مع نفسه مبررا: تلك الشهية اللذيذة؛ لها في خانة الحاجة جزء لا يتجزأ من الأنانية المكينة، لكن أمام الأنا؛ تعجز

الجزيئات عن المقاومة، فمن الممكن إيجاد الحلول، بالحصول على الحاجة من سوق النخاسة... أمام الدراهم توجد من تبيع الجسد؛ إلى عابر سرير، أنتِ لستِ الوحيدة في هذا العالم، لكنكِ بلا ريب الأجمل، مع أسفي الشديد.

يتحرك بخطوات سريعة والمظلة بالكاد تحميه من وابل المطر، مشاعره كانت تتضارب أكثر كلما أقترب من الزقاق رقم (١٧).

عندما وصل البناية رقم (٦) وقف أمامها يتفرس بعينين ثاقبتين، حركت فيه ذكريات جميلة بعدما مضى إلى سلم العمارة، -إنه في زمن ليست فيه مصاعد-.

في الطابق الثالث طرق باب الشقة؛ نادته وهي تقف خلف الباب، أجابها... سمعت صوته؛ فتحت الباب بسرعة، وأخذت تعانقه وتقبله.

دخل وأغلق باب الشقة، وما تزال القُبلات تزيد من حرارة اللقاء، وما هي إلا بضع خطوات وصلا بها إلى غرفة النوم، وقعا فوق السرير الذي بقي يهتز بشدة، حتى سكنت الأنفاس، وأحسا بالانتشاء، تركها مستلقية تنعم بالراحة، نهض برهة وعاد، بعد لحظات عادت الضربات المميتة تنهال عليها بقسوة، لحظات من الجنون

والألم؛ نزفت دماؤها في محراب الغدر، بعد جولة حميمية بين عاشقين.

وقف ينظر إليها، فاغرة فاها، عيناها ترمقه بخوف، جسد غادرته الأنفاس اللاهثة وراء قطيع الأحلام، لم تستطع التوسل إليه، كان يضع يده بقوة على فمها المشبع بقبلاته، ودّعها بقبلة على شفتيها الذابلتين، خرج يحمل مظلته، تاركا خلفه ماضيا غارقا في الانحطاط.

يفتح عينيه بالكاد، يتحسس جسده والمكان، ينظر إلى يديه، لا يجد تلك الدماء الوردية التي سالت على سرير الغرور في زمنه الآخر، حالة الرعب تتوغل في نفسه، يجلس القرفصاء، يضع رأسه بين ركبتيه، يضرب فوق دماغه، يصرخ، يرتعش، يجن جنونه.

دخلت زوجته مسرعة، قلبها يخفق بقوة، احتضنته، رفعت رأسه من بين ركبتيه:

- توقف، لا ترتعش، لا تخف، أنا معك.

- أنا لم اقتلها، هو الذي قتلها، طعنها بالسكين، كم هو ظالم ومجرم.

- حبيبي، لا تخف، أنه مجرد حلم، بل هو كابوس عابر.

- كابوس؟.

وضعت أناملها على صدغيه، فركتهما بحنان، حولت أناملها إلى جبهته دعكتها برقة، قربت شفتيها إلى شفتيه، منحته إحساسا بالسكينة ثم ساعدته على الوقوف، أخذته إلى الحمام، وقفا تحت الماء، الذي غمره بالهدوء والراحة.

عندما وضعت رأسها على الوسادة، طلبت منه أن يحدثها عن ما شاهده في سفره هذه المرة، أخذ يقص عليها الأحداث حتى نهايتها، أخذت تمسد شعره الناعم؛ فأخذه النوم إلى عالم أخر... يرى نفسه يركض، يقود مجموعة من الشرطة، بيده مسدس، وذلك المجرم يحاول الهرب، دخل بناية مهجورة، دخل خلفه بحذر مع بقية الشرطة الذين توزعوا إلى جميع الاتجاهات، نادى عليه: سلم نفسك إلى العدالة، أجابه برصاصة كادت تصيبه، أطلق عليه الرصاص فأردته أرضا، هرول الجميع إليه وجدوه ميتا، ابتسم وأحس بالسكينة.

مع شروق الشمس، نهض من فراشه، وجد نفسه مرتاح البال، قرر عدم إيقاظها من نومها، قبل الخروج وضع قُبلة على شفتيها؛ أحست بها فعانقته:

- حبيبي، انتظر حتى أعد الفطور.

- حبيبتي، عودي إلى النوم غاليتي، فما تزالين بحاجة إليه.
- لا بد أن تفطر.
- سأفطر في العمل.
أغلق الباب خلفه ومضى، راحت تفكر في ليلتها الماضية، استرجعت الأحداث لحظة بلحظة، وكلما توغلت فيها أكثر؛ يزداد فيها شيئا فشيئا، أمل ينشر نسائمه في قادم الأيام.
أخذت جهازها المحمول، اتصلت به، طلبت لقائه على وجه السرعة، ضرب لها موعدا، نهضت من فراشها وهي تتمايل فرحا بالحدث الأخير، فراحت ترقص في خيالها الرحب مع الحبيب على أنغام أغنية العاشقين، وبعد لحظات من اللهو والمرح تذكرت الموعد وبادرت لتحضير نفسها للخروج.
ركبت السيارة وقادتها نحو لقاء خاص مع رجل أحبته بصدق، على الرغم من لقائها المتكرر معه بين حين وآخر، لكن حرارة الاشتياق ما تزال مستمرة، لا يمكن نسيان حضن طالما أشعرها بالدفء.

عندما وصلت إلى حديقة المشفى، وجدته في انتظارها مثل كل مرة، فتح ذراعيه وأخذها في حضنه، قبلها على وجنتيها وبادرته بالمثل، جلسا وما يزال يمسك بيديها:

- عزيزتي ماريا، أراك اليوم زاهرة مثل وردة الربيع؟ والابتسامة الغائبة منذ فترة طويلة قد عادت إليك؟.

- نعم يا غالي، حادثة يوم أمس تنبأ بالبشرى.

- أخبريني عنها بكل تفاصيلها حتى المملة منها.

راحت تسرد كل شيء، حتى أتت على نهايته، أبتسم في وجهها:

- عزيزتي: طبعا ليس خافيا عليك تفسير ما حدث ومعرفة نتائجه، أنت نجحت في مغامرة غير مأمونة الجانب، كنت الطبيبة المتفوقة على نفسها دوما، وكنت الطالبة الأقرب على قلبي، خطؤك الوحيد هو؛ تولي معالجة مريض كان وما يزال حبيبك، وهذا ما لا تقبله أعراف الطب، مع هذا جازفتِ وفزت.

- أستاذي، تعرف أنني لم أستطع التخلي عن حبيبي، وكنت أعرف أنني سوف أكون طوق نجاته.

- عزيزتي، قد تكون أعراف الطب نسبية وقابلة النقض في حالات خاصة، المهم أن الانتقال الأخير يؤكد تجاوز مريض (العصاب) حالة الانهيار النفسي، فقتل العشيقة

التي تعرف تفاصيل حياة عشيقها والتي يعتبرها مصدر تهديد على حياته، وهو يعرف أنها لا تتوانى في فضحه مع أقل حالة ضغط أو خوف، لذا قرر العشيق طي صفحة الماضي والخوف إلى الأبد.

ضغطت على يده برقة وقالت:

- أريد أن أسمع منك النتيجة.

- قد أستطيع الجزم، أن زوجك قد تخلص من حالته المرضية وقد لا يتلبس في الأيام القادمة، بجسد ذلك الشخص الذي كان يعيش في زمن من الماضي، والأيام القادمة ستكون كفيلة في طي هذه الصفحة أو...، لا أريد أن أكون متشائما، لكن هو شهر واحد وتتضح الصورة.

عطف الموتى

مع شروق الشَّمس تخرج على عادتها، تجوب الشوارع، تتلفّت كأنّ فوق رأسها الطّير، الحذر يرافقُها خوفا من المجهول، شبح ذلك الوحش الرَّهيب يطوف في المدينة، يخطِف بطونَ الجيَّاع، يعصرها حدُّ التَّلوي والاكتواء، ربّما تدوس فوق شظايا الزُّجاج المتناثرة قرب حاويات النِّفايات؛ أو تجرح يديها عند البحث عمَّا يصلح أن يكونَ طعامَ لإيتامها الأربعة.

هذا ما تعرّضت له في الأيام الماضية رغمَ الحذر والحيطة، فهي في سباق مع القطط والكلاب السائبةِ، من يسبق الآخر ليفوز بلقمة تصاحبها الأوساخ.

تنفض التُّراب عنها وكأنها جوهرة ثمينة رماها بيت من لا عهد له بالجوع والتشرد، تضع لهم الخوان؛ يلتفونَ حوله بلهفة تمتدّ أيديهم لتلتهمَ بسرعة ما جنته في رحلتها النَّهارية، ينامون والجوع لا يزال طعمه في أفواههم ليحلموا بمستقبل ألوانه معتمة، غطّت هي في سبات عميق، انبثق ضوء على أثره سمعت الباب يطرق، أسرعت إليه، خلفَه يقف رجل اخترق حجب التأريخ،

يحمل من الغذاء ما جعلها ترسم البسمةَ على وجهها، أخذ الرَّجل يسطر الأواني ويضع عليها أنواعَ الطَّعام والشراب، أسرعت إلى أطفالها توقظهم أجلستهم أمامَ المائدة، أخذوا يلتهمونَ بشرهٍ من جميع الأنواع، يبتسم الرَّجل وهو يقف فوق رؤوسهم ناظرا إليهم بفرح، امتلأت بطونهم حتى فاض الطَّعام والشَّراب من أفواههم، أخذ يغسل أيديهم ووجوههم، أجلسهمْ على فخذيه يمسّد على رؤوسهم:

- هل شبعتم؟.

ضحكوا كأنهم ملائكة في زمنِ العولمة...

- معذرة سيدي نسيت أن أسألَكَ من تكون... ومن الَّذي أخبرك بحالي وحال أطفالي؟.

أشار إليها إنَ الأطفال بدأوا ينامون، حنانه وعطفه أثارا استغرابَها وفضوَها، أصرت أن يعرِّفها بنفسه.

- أنا من يطعم الطعام على حبِّه مسكينا ويتيما وأسيرا.

- سيدي الكريم أهلاً بمقدمك.

نهضت بسرعة من مكانِها، اعتصرها الألم... كانت تريد تقبيل ردائه وشكره على زيارته، عادت إلى فراشها وهي تعيش لذةَ الحلم السعيد الذي تمنّت أن يكون حقيقة.

في الصَّباح تعالت أصوات الضَّجيج والعويل، تذكرت عمود خيمتها الَّذي قضى نحبه في انفجار سيارة مفخخة، توقّفت في مكان تواجد عمال البناء.

ذلك المنزل خرجت منه بلا عودة لعدم قدرتها على دفع مبلغ الإيجار، أصوات الصفائح المعدنية كانت تنهار واحدة تلو الأخرى، صياح جارتها صك أُذنيها وهي تحثّها على الإسراع بالخروج من دار الصفائح كي لا ينهار فوق رؤوسهم.

أنقذَهم القدر من الموت، أصبحوا خارج الأكوام، تلك الجرارات الهادمةُ يقودها جمادٌ بلا أرواح.

جرّت ذيول الخيبات خلفها مع صغارها، فارقت المأوى الحاسر، جلست في خربة تبكي حرقةَ الضَّياع في زمن تمنَّت فيه كنف علي، أو حتَى حلم فيه أبو الأيتام، وظلّت تنتظر عطف الأحياء الأموات.

بغداد

تقلبني أوجاع الشوارع فوق سرير التعب، أحاول الولوج في ممرات الذكرى، هناك عند اللاشعور أغفو في حضنها، قلبها المتلهف يضمني بين ذراعيه، يحاول لملمة كياني المشظى، الإحساس بالدفء يزيد من عطشي إلى حنانها المتوهج، حتى يتصاعد الشخير المدوي من أنفاسي.

الياسمين يعزف موسيقى الفجر الهادئ، فأصحو على نور شمسي في صباح يوم جديد يبعث عن أمل متجدد، رغم قسوة الحياة نهضت من فراشي وأنا أنظر إلى وجهها المشرق. ما تزال تغط بنومها العميق، قررت أن أتركها في أحضان الأحلام، تنعم قليلا قبل أن ترى مفاجئتي. بعد دقائق رجعت إليها، بأصابعي دغدغت خدها الوردي، فتحت عينيها مع إشراقة ابتسامتها، لم تتوان بعناق لطيف؛ مع إمضاءه بطعم العسل وضعتها فوق شفاه القدر، عندما شاهدت المائدة جاهزة؛ أخذها الفرح على أجنحة الحب، تكرر كلمات العشق التي تنعش فؤادي، ما زال الطعام يستمد من حلاوة مذاقه الرائع.

أيامنا الرتيبة لا تأتي بجديد، دراجتي النارية (الستوتة) تطوي الزمن يوميا في رحلتها إلى السوق، أمست

رفيقتي الثانية في حياتي العملية. سوق يوم الجمعة يختلف عن بقية أيام الأسبوع، فهو يعج بالناس، أقف خلف بضاعتي المزجاة أتأمل الوجوه، أرى فيها أوجاع الزمن القاسي، أنفاس لاهثة تبحث عن راحة مفقودة في زمن المسخ المشوه. صوت أبي أحمد الجهوري، وهو يصيح:

- "طماطة، خيار، أسود، بألف دينار...".

أعادني إلى الصخب؛ أطلقت العنان لحنجرتي، تصدح بما جاد به جاري، ضحكت في سري، ومع صرختي الثانية... دوى صوت الانفجار مسامعي وأصم أذني، خلال لحظات مجنونة، لم أر فيها سوى الدخان الأسود، وجسدا تكوم بين الخضروات والفواكه، تفقدت جسدي؛ حمدت الله، وأسرعت إلى مكان التفجير محاولا إنقاذ الجرحى، بين الحطام والأجساد المقطعة تعثرت بجسد وسقطت... لكن تفاديت زيادة وجعه وجراحه؛ برمي جسدي بالقرب منه، سمعته يئن، ما زال يتنفس؛ كان غلام بعمر الزهور، حملته وركضت به لأقرب سيارة تذهب به إلى المشفى، وضعته في المقعد الخلفي وأسرعت عائدا للمكان مرة أخرى، في منتصف الطريق؛ وأنا أركض شاهدت جسدا يتفجر بين جمهور المنقذين، أحال المكان إلى كارثة

ثانية، غصت في عالم اللاوعي، تشبثت بضوء للخروج من العتمة بين الركام، أسرعت للمساعدة من جديد، حاولت انتشال شخص يغط في دمائه، لم أستطع، صرخت بصوت عال:

- ساعدوني...

لم يسمعني أحد، كانت الأصوات تنتشر متكسرة كالهشيم في أجواء مخيفة إلى حد الرعب، رابني هؤلاء الذين يطوفون كأنهم أشباح بيض، تعلو وجوههم النضرة والبشرى، قذفتهم في سري ولعنت الشامتين. ذلك الجريح حمله ثلاثة رجال وأسرعوا به إلى سيارة الإسعاف، قررت مرافقته إلى المشفى، فركبت معه. عالم لا ينتهي بحدود، المشفى تعج بالصراخ والعويل، تلك المرأة تنوح فوق جسد ابنها المقطع، وهذا الشاب يبكي فوق رأس أبيه المحترق.

على مسافة خطوات تجمع عدد من الأطباء حول شخص، أسرعت إليه لعلي أعرفه، أحدهم يمسك جهاز الصدمة الكهربائية للقلب علّه يسعفه، اقتربت منه أكثر؛ رأيت نفسي! وسمعت الطبيب يصرخ:

- عاد نبضه!.

موعد

يمضي الليل في سكونه حتى يغتاله الفجر بلحظة من القدر الرهيب، يبدد ظلامه الدامس، النجوم التي كانت تسكنه؛ تختفي خوفا من سطوع الشمس، الجمال يخاف النور؛ لذا يلوذ بستر الليل الفاحم، تلك النجوم لا تعرف أن الليل يفضحها أكثر حيث لا تتلألأ إلا في عتمته، نسيت النجوم إن الشمس ترسل أشعتها الفضية التي تغطي بريقها إلى حد الستر التام.

- ما علاقة الليل والنجوم بموعد ضربته مع القدر؟.

هذا ما قالته عندما استعادت نظرها الذي سرقه وجه القمر منها...تنساب من شرفتها نحو الغرفة، تتجول في فكرها الرحب، تعود كي تجيب عن سؤالها قبل لحظات:

- نعم، العلاقة واضحة جدا بين الليل والنجوم والموعد الذي قطعته مع حبيبي قبل ساعة.

- هل تفكرين في إلغاء الموعد؟.

- ربما نعم!.

- وربما لا؟.

- نعم... لي رغبة جامحة إلى عناقه الأبدي.

- وهل سوف تتركينه يعانقك؟ ما هذا الهذيان يا سلوى؟... هل سلب عقلك ذلك الكهل؟... أراك صرت طوع بنانه؛ يحركك كيفما شاء كقطع الشطرنج؟.

- وهل الحبيب يرفض ما يرغب به حبيبه! المهم غدا سوف أكون بين أنامله وردة يفوح منها عطر يهيج به لوعة الشوق إلى حضن أبدي لا يعرف معنى للفراق، يكفي أنني سوف أحرمه لذة الطعام في ذلك المطعم الفخم حيث الطعام الفاخر ومشروبات مصنعة من فاكهة طازجة، سوف أكون وحدي لذته السرمدية التي تشبع نهم جوعه ويرتد منها أكثر جوعا، وحدي من سيقف في محراب عينيها يمجد الجمال والروعة في الكون الرحب، وحدي من ستكون سماءه وأرضه في الوقت ذاته، سوف أجعله طفلا يرتخي في مهده المتأرجح، لا ينام إلا في مهدي، سوف يكون شعري الغجري ليله السندسي وبياض عيني نهاره المفعم بالأمل.

- ألم تكتفي بهذا الهذيان؟.

- لماذا تسميه هكذا؟... وهو الحب يسمو بجناحين نحو السماء!.

- أخبريني، كيف أحببته إلى هذا الحد؟.

- عصفورة أنا، أحلق فوق رياض الرياحين، لا تخاف الفراشات تقترب مني كأنني مصباح، في عيني ضوء ساحر.

ذات مرة دخلت إلى محل لبيع الإكسسوارات أبحث عن نظارة شمسية، ذلك الكهل جذبني بشكله السومري الوقور، لسانه العذب ينطق الشهد، حركاته وسكناته تدل على جمال الخلق والخلق الرفيع، أحببته من النظرة الأولى، خطف قلبي كسارق محترف، الصمت الرهيب اجتاح كياني، عاصفة العواطف شتت أفكاري، سألني عن حاجتي؛ بلهاء تقف كأنها مسمار نابت في خشب، اندهاشي أثار استغرابه.

- وكيف أحبك؟.

- في اليوم الثاني، زرته في محل عمله، أخبرته بعدم قناعتي بالنظارة التي اختارها لي، نظراته الحانية زادت دقات قلبي، كلماته تنساب مثل سلسبيل عذب، لا أعرف كيف يتلاعب القدر في مصائرنا، سألته بعد عقد قراننا: هل أحببتني؟.

- وماذا كان جوابه؟.

- بلهاء أنت، حبيبتي! في عينيك سماء تفتح ذراعيها لعشاق الصفاء، لا يعرفها غير العارف الواله، أنت درتي المكنونة وقدري المحتوم.

فعلا أنا بلهاء، ضحكت على مفردة (بلهاء) ولم ألتفت إلى فحوى جوابه.

- سلوى، وماذا عن يوم غد؟.

- لا أعرف عنه غير موعدنا الذي خططنا له، كلي شوق للخروج معه.

سوف أكتب تفاصيل ما سوف يكون (مدونتي!) أنت رفيقة رحلتي ومؤنسة ليلي الموحش، غدا يوم جديد قادم، والقادم مجهول لا نعرفه إلا بعد انقضاء ساعاته.

مع كل كلمة كنت أكفكف دموعي، اضغط على روحي المتعبة، أبتغي قراءة كل حرف كتبته أختي سلوى، عانقت دفتر مذكراتها، استنشقت روحها القابعة بين طياته، أراها ترقص فرحا بفستانها الأبيض، نيران تشتعل في داخلي، صرخات تنفجر بقوة... ما عدت أحتمل فراقها... على ضجيج الذكريات دخل، ضمني إلى صدره، راح يمسد على شعري...:

- ابنتي الحبيبة، هوني على نفسك.

- كيف يهون عليّ فراق شقيقة روحي؟.

- سلوى أصبحت بجوار الله... كفي عن قراءة مذكراتها.
- بابا أرجوك أجبني: ما ذنب سلوى وكامل؛ تأكلهما نيران انفجار الكرادة، لماذا أصبح العيد الذي كان موعد الزفاف المرتقب... عيد الشهيد؟!.

شروق الشمس

بعد عشاء، جلس يتبادل أطراف الأحاديث مع رفاقه، احتساء الشاي زاد من متعة السمر. ضباب الليل البهيم؛ وقف على الباب كأنه غراب ينعق بصوته القبيح:

- "على الجميع النهوض بسرعة، سيادة الضابط ينتظركم في غرفته".

استحال الليل أكثر عتمة، يسيرون معا ويتساءلون؛ ماذا يريد منا الضابط في وقت راحتنا؟ صفقات وقع أقدامهم تعالى مع ارتفاع أيديهم وهي تؤدي التحية العسكرية، نظر إليهم، وقال:

- اذهبوا مع النائب ضابط جبار لأداء واجب مهم صدر من القائد آمر الفرقة.

غيّم القهر على لحظات الراحة المسروقة، لا سبيل للعصيان، انطلقت بهم السيارة، وقفت على مرتفع من الأرض، ترجل الجميع، أخذوا معهم المعاول والمجارف، سار أمامهم نائب الضابط، شاهدوا شواهد على الأرض تدل على أنها قبور لأطفال...

- "ها هنا، احفروا!". قالها غير مكترث.

- سوف يكون لنا مواضع هنا لمراقبة العدو.
- كيف نحفر هنا، هذه مقبرة أطفال؟!.
- نفذوا الأوامر، وإلا سوف تعاقبون!.
(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، قالها في سره، وعزم على العصيان.
- سيدي، هل يرضيك أن نحفر في مقبرة أطفال ونخرج جثثهم؟!.
- لا مشكلة، هؤلاء أطفال أكراد.
- سيدي، الأطفال بشر، موتى لهم حرمة؛ أين الإنسانية؟.
- أخرس، يا...! إما أن تحفر مع بقية الجنود؛ أو تسكت.
تنحى جانبا على مضض، يرى زملاءه يحفرون والتذمر خليط مع الغضب والخوف، كلما وجدوا عظام نخرة؛ تقيأت أنفسهم الضجر.
- العقوبة أهون على نفسي من عمل قذر.
قالها، وهو يدرك مصير عصيان الأمر العسكري، لكن كان يهون على نفسه ما سوف تؤول إليه الأمور.
عند عودتهم إلى مقر الفرقة، أخذهم جبار إلى غرفة الضابط، وحكى له عن عصيان محمد، الغضب بان على ملامح وجه الضابط؛ الذي توجه بكلمات لاذعة لمحمد، ثم أمر جبار بأن يأخذه إلى ضابط الانضباط العسكري.

كان يدرك معنى إحالته إلى الانضباط الذي لا يرحم أي جندي، فأخذه الخيال نحو غرفة التعذيب.

في الطريق إلى غرفة الانضباط، نفّذ ما خطط له قبل لحظات، ففي أول غفلة لـ(جبار) انطلق مع الهواء نحو الخلاص والحرية، واضعا يده فوق العتمة؛ يتكأ عليها، لا يريد التنازل عن قدر حرك ساقيه فوق فوهة البركان، لا ينفع التراجع بعد انزلاق القدم، الهاوية سحيقة، عميقة، بعمق النفس المتشحة بلباس الحزن، ينازع البرد في سبيل كيان يجمع بقية شتاته، ليل بهيم، وحش لا يعرف النور، يركض...

يسمع وقع أقدام تركض خلفه، ربما مجرد خيال لا حقيقة له، هواجس الخوف تصنع تلك الأصوات، المهم لا عودة إلى الوراء رغم حلكة الليل، يواصل محمد الركض مع أنفاس تتقطع وتكاد تتوقف من الرعب، تنزلق قدمه في الهاوية؛ ينحدر بقوة على شكل كتلة تتخبط بالأرض، أنقذه الارتطام بالماء الآسن، بالكاد يجر نفسه خارج ذلك (البزل) العفن...

جسد ضعيف أثقلت كاهله أكوام الطين العالقة مع شدة البرد. شمر ساعده يحاول إزالة العوالق، نهض من جديد يحث الخطى ضاغطا على أعصابه وقدميه، الخوف من

إدراك الملاحقة يشد العزم نحو الانتصار على قواه الخائرة، تابع السير حيث لا يعلم، الفرار نحو النجاة إلهام من النفس.

من بعيد شاهد أضواء كثيفة، ربما أنها قرية! قالها والفرحة زادت من عزمه وإصراره على المضي، ارتعاشات الجسد في البرد القارس يخف مع أشغال الجسد بالحركة، الإسراع كان سبب في عثرة أخيرة جعلته يتدحرج من الأعلى إلى الأسفل كأنه كرة، على الرغم من الجروح لكنه نهض من جديد.

كانت مزرعة الدواجن أول ما وصل إليها، دخل على حذر شديد خوفا من وجود الحارس، راح يتجول في المكان، لا أثر لوجود أحد، لاحظ غرفة يوجد فيها ما يستطيع استخدامه وسيلة للنوم، التعب أعياه؛ أغمض عينيه في أحضان الدفء.

على زقزقة العصافير؛ أستيقظ، لا يعرف الوقت بالضبط، لكن الشمس كانت ساطعة ترسل أشعتها الفضية مثل أوتار قيثارة تعزف نبض الأمل، خرج إلى الشارع، تأكد أنها قرية، أنظار تتوجه نحوه بدهشة، ملابسه تدل على أنه جندي، ثلاثة شباب وقفوا أمامه مرحبين بلغتهم الكردية، قال وهو يشير بيده لهم أنه لا يعرف لغتهم،

فتكلم أحدهم باللهجة العراقية، الفرح مع الخوف من المجهول شكّلا لوحة على ملامح وجهه المرهق.

أواصر الرحم العراقية تزخر بالرحمة رغم وجود نزاعات فرضتها السلطة القمعية، الشباب الكرد الثلاثة تولوا رعايته، ألبسوه من ملابسهم، وبقي عندهم أياما كانت نهايتها انهيار سلطة (هدام)...

أخيرا، كانت رحلة العودة إلى الأهل أقل خوفا مما شاهده في سالف أيامه، لم يكن يصّدق إنه في أحضان الحياة؛ عندما كان يضع ابنه أحمد بين أحضانه ودموعه تنزل على خديه مثل زخات مطر آذار.

جمرات في قبضتي

كلما أنظر إلى السماء، أرى ما تستطيع عيني رؤيته فقط، كيف لي أن أرى ما لا تراه الأعين المجردة، أسأل نفسي هل يستطيع الإنسان أن يتجاوز الجسد المادي ويتجاوز حدود المادة؟ كيف يتسنى له الوصول إلى أبعد مما تراه العين؟.

عندما أبدأ القراءة في كل مرة، أجد نفسي خارج حدود المادة، تسيح روحي في عوالم افتراضية قد تكون موجودة لكني لا أستطيع إدراكها، حيرتي كانت تزداد مع كل سفر وسياحة في عوالم الكتب، المعرفة كنز لا يفنى، لا يعرف قيمتها أغلب البشر الذين علقوا في عالم المادة، وابتعدوا عن عالم الروح.

عندما وقع نظري على كتاب (قصة الإيمان) لنديم الجسر، أحسست أن حيران بن يقظان هو نفسه أنا، تذكرت ذلك العارف جيراننا، كان أغلب الناس يظنونه رجلاً مجنوناً أو ملبوساً، على أن ليس كل ما يظنه الناس هو الحقيقة المطلقة، عندما التقيت به قبل مدة في الطريق إلى

المسجد، ألقيت عليه التحية السلام، وسرت معه، فسألني:

- ماذا يقول الناس عني؟.

- هل من الضروري أن تعرف؟.

- لا تعرف غايتي الحقيقية من سؤالي!... لذا أنتظر اجابتك بفارغ الصبر.

لم أفهم غايته، كنت قلقاً من الرد الصريح عن سؤاله، هو استشعر هذا الوجل؛ فطمأنني بكلام مريح، جعلني قادراً على الإجابة فقلت له:

- شيخنا، الناس على قسمين منهم من يقول عنك مجنون، ومنهم من يقول أنك عالم.

ابتسمَ وقال:

- وأنت ما الذي تراه؟.

- أرى ما يراه سيد العقلاء بعد سيد البشر "الأنسان مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه".

ملامحه كانت تدل على ارتياح من إجابتي، نظراته يملأها العطف، تمتم:

- يا غريبا كن أديبا.

كلمة لم يكن لها رابط بموضوعنا، قلت:

- كيف تكون غريبا وأنت ابن هذه المدينة؟.

- قد تكشف لك قادم الأيام عن معناها.
في حينها ودعني بابتسامة فيها حب وإكرام.
لم يكن هذا اللقاء هو لقائي الأول به، فهو يعرفني جيدا ويعرف عائلتي، عقلي ومشاعري تحثني على صحبة هذا العالم، كنت أسمع عن علمه الكثير من بعض العقلاء، ومن خلال قراءتي كنت أحاول رسم الطريق بدقة نحو تحقيق قيادة العقل المطلق، هذا الجوهر الثمين هو هبة الخالق عز وجل للإنسان، العقل الذي ميزنا عن بقية الحيوانات وجعلنا أفضل الكائنات.
خرجت من البيت وكلي عزم على تنفيذ قراري، وقفت على باب داره والخجل يملأ كياني، ترددت لكن إرادتي غلبت، طرقت الباب أخيرا، عندما نظر في وجهي وأبتسم، رحب بي وأدخلني إلى صومعته، الغرفة تعج بعبق الكتب، بان على وجهي الانبهار، تبسم وقال:
- هذه عقول العلماء والمفكرين، أعيش بينهم وأعرف حقهم علي، وهم غذائي الروحي.
- شيخنا الجليل، عندي طلب وأرجو أن لا تردني خائبا.
- تفضل ابني لك ما تشاء.
- منذ نعومة أظفاري تعلقت بالقراءة وكسب المعرفة، وعندي نهم عارم لزيادة المعرفة ولدي تساؤلات كثيرة

تجول في عقلي القاصر، ولمعرفتي بك وبعلمك وكونك جار لنا، وحق الجار على جاره ثقيل، أطلب أن تقبلني تلميذ لديك يعرف قدرك ويوقر شخصك.

ابتسم الشيخ، واطرق برأسه إلى الأرض، ثم نهض وجلب كتيب صغير من إحدى رفوف مكتبته الغنية بالكتب:

- هل تعرف رسالة الحقوق؟.

- نعم أعرفها... أمي تعرف مدى حبي وعشقي للكتاب، وتعرف أنّ لا هدية عندي أغلى منه، ذات مرة اشترت أمي كتاب الصحيفة السجادية -مزمار آل محمد- وأهدتني إياه، فرحت به كثيرا؛ على الرغم من وجوده في مكتبتي والاستفادة منه في أوقات العبادة ورفع الدعاء، لكن ما لاحظته هو وجود ملحق بالكتاب، بعنوان (رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام)، لم أكن مطلع على هذه الرسالة من قبل، شكرت أمي وقبّلت يداها، وقرأتُ الرسالة وفهمت منها أشياء كثيرة.

- اسمع ما سوف أقرأه لك منها، يقول مولاي سيد الساجدين: (وأمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بالعِلْمِ فَأنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ جَعَلَكَ لَهُمْ فِيمَا آتاكَ مِنَ الْعِلْمِ وَ ولاّكَ مِنْ خَزَانةِ الْحِكْمَةِ، فَإنْ أَحْسَنْتَ فِيمَا ولاّكَ اللّٰهُ مِنْ ذلِكَ وَقُمْتَ بِهِ لَهُمْ مَقَامَ

الخَازِنِ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ لِمَولاهُ فِي عَبيدِهِ، الصَّابرِ الْمُحْتَسِب الَّذِي إذَا رأَى ذا حَاجَة أَخرَجَ لَهُ مِنَ الأَمْوَالِ الَّتِي فِي يَدَيهِ كُنْتَ رَاشِدًا، وَكُنْتَ لِذَلِكَ آمِلاً مُعْتَقِدًا وَإلاّ كُنْتَ لَهُ خَائِنًا وَلِخَلقِهِ ظَالِمًا وَلِسَلْبِهِ وَعِزِّهِ مُتَعَرِّضًا.)، لذا طلبك مجاب.

فرحتي كانت تشبه فرحة الأرض اليابسة بقطارات الغيمة الهاطلة على جسدها، أردت أن أرد هذا الجميل فطلبت من شيخي الرسالة، أخذتها وتلوت عليه منها: (وأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بالعِلْمِ فالتَّعْظِيمُ لَهُ والتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ وَحُسْنُ الاسْتِمَاعِ إليهِ وَالإقْبَالُ عَلَيْهِ وَالْمَعُونةُ لَهُ عَلَى نفْسِكَ فِيمَا لا غِنَى بكَ عَنْهُ مِنْ الْعِلْمِ بأَنْ تُفَرِّغَ لَهُ عَقلَكَ وَتُحْضِرَهُ فَهْمَكَ وتُزَكِّي لَهُ قَلْبَكَ وتُجَلِّى لَهُ بَصَرَكَ بتَرْكِ اللّذَّاتِ وَنقْص الشّهَوَاتِ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ فِيمَا أَلقَى إلَيْكَ رَسُولُهُ إلَى مَنْ لَقِيَكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ فَلَزِمَكَ حُسْنُ التَّأْدِيَةِ عَنْهُ إلَيْهِمْ، ولا تَخُنْهُ فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ وَالْقِيَامِ بهَا عَنْهُ إذا تَقَلَّدْتَهَا.)، فهذا عهدي لك ما دمت حتى ينقطع النفس.

ضرب لي وقت يناسبه ويناسبني في تلقي الدروس، وقد أكد علي مراجعة رسالة الحقوق دوما والالتزام بما جاء فيها لأنها دستور أخلاقي شامل يحقق السير والسلوك نحو الخالق، كما يحقق السعادة في الدنيا.

كما حلم الفلاسفة والمفكرين بالمدينة الفاضلة، كنت أحلم نفس حلم الفارابي وأفلاطون في جمهوريته، في يوم طرحت على شيخي سؤال: هل بالإمكان تحقيق المدينة الفاضلة أم هي حلم يصعب تحقيقه؟.

- على الأرض تحتاج إلى معجزة إلهية، فالدنيا ليس مكان لتحقيق العدل الإلهي والسبب في ذلك هو أنّ النفس البشرية جعلت فيها قوى متناقضة والقليل يسيطرون على أنفسهم بقوة العقل ويكبحون زمامها، لكن سوف تكون المدينة الفاضلة في عصر الظهور ببركة بقية الله في أرضه.

- كيف ذلك ولماذا؟.

- العدل الإلهي هو أصل من أصول الدين والله تعالى سوف يظهر في آخر الزمان هذا العدل في دولة المهدي المنتظر ليكون نموذج حي لما بعد زوال الدنيا.

كلما مرت الأيام مع معلمي ازداد فهمي وتنور عقلي، وأدركت أن المدينة الفاضلة موجودة في ذات الإنسان وهي متحققة فعلا بالإنسان الذي يمتلك الحكمة ويسير بمنهاج العقل والأخلاق.

الأجواء كانت مشحونة بالقلق، كنت أشاهد العيون التي تراقب بيت أستاذي تنذر بالخطر المحدق، عندما أخبرته

بهواجسي، نصحني بالاستعانة بالله، كنت اغبطه على قوة الإرادة والاطمئنان، طلب مني الانقطاع عن الدرس، والصبر حتى يتبين واقع الحال من حملات الاعتقال التعسفية والإعدامات التي طالت طلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف من قبل نظام البعث الصدامي، أثناء حديثنا اقتحم رجال الأمن دار أستاذي اوثقوا أيدينا وبعثروا المكتبة وأخذوا منها بعض الكتب، كانت لحظات انتابي فيها الخوف، شيخي كان مطمئنا وقد نالني من ثباته شيء؛ فارتاحت نفسي، أكثر من يومين ونحن في غرفة ظلماء، فجأة أنير المكان ودخل علينا مجموعة من الرجال وانهالوا علينا بالضرب المبرح، مرت علينا دقائق كأنها سنين طويلة، في داخلي أقول: (أمثل هذا الرجل العالم يضرب ويعذب؟!)... تذكرت محنة الأنبياء والمرسلين وهانت محنتي عندما تذكرت محنة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

على الرغم من كل ما جرى علينا؛ شيخي كان يذكرني بالصبر والسلوان ويحثني على تلاوة ما أحفظه من القرآن، والأدعية، كانت كلماتهم البذيئة التي تنهال علينا؛ أقسى من سياطهم، تذكرت كلام الإمام زين العابدين: (وَأَمَّا حَقُّ اللّسَان فَإِكْرَامُهُ عَنِ الْخَنَى وتَعْوِيدُهُ عَلَى الْخَيْرِ

وَحَمْلُهُ عَلَى الأَدَب وَإِجْمَامُهُ إلاّ لِمَوْضِعِ الْحَاجَةِ وَالْمَنْفَعَةِ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا وَإِعْفَاؤُهُ عَنِ الْفُضُول ُالشَّنِعَةِ الْقَلِيلَةِ الْفَائِدَةِ الَّتِي لا يُؤْمَنُ ضَرَرُهَا مَعَ قِلَّةِ عَائِدَتِهَا. وَيُعَدُّ شَاهِدَ الْعَقْلِ وَالدَّلِيلَ عَلَيْه وَتَزَيُّنُ الْعَاقِلَ بعَقْلِهِ حُسْنُ سِيرَتِهِ فِي لِسَانِه).

بكيت وقلت في نفسي أين هؤلاء من الإنسانية والعقل، أفراد وجماعات باعوا الثمين بالثمن البخس وتاجروا بتجارة خاسرة، ولا أعظم من خسارة الضمير.

خرجت ولكن قلبي بقي مع أستاذي ومعلمي، أيام وليالي مرت؛ طالت غيبته، بعد ثلاث وعشرين سنة وما زلت أتمنى رؤيته والوصول إلى مستوى درجاته الرفيعة.

وأخيرا أيقنت معنى كلمة معلمي: (يا غريبا كن أديبا)، حقا أن العلماء يعيشوا حياة الغربة بين الناس ما دام الناس لا يعرفون قدرهم.

أزهار بين الصخور

ارتمت في أحضانه تذرف دموعَها الحرّى كأنّها تريد الولوج إلى داخل قلبه الحنون وتمضي معه إلى صلاح الدين، حيث معسكر (سبايكر) الذي أصبح مقرّ تدريباتهم العسكرّية، أراد تهدئتها وتسكين خوفها، لاطفها قائلا:

- حبيبتي، هل أفتح لك قلبي حتى تدخلي إليه؟.

- لو كان الأمر بهذه البساطة.. نعم!.

- حبيبتي، أنت متربعة في داخله وهو ملكك فقط.

- أنا لا اشك فيك أبدا.. لكن!.

- لكن ماذا، يا روح قلبي؟.

- أرجوك.. لا تسافر وتتركني وحدي مع حيدر وأمك العجوز، فنحن بحاجتك!.

- يا ملاكي الرائعة... ومن للوطن؟!.

صمتت، حبست أنفاسها، غصّتها عادت بها إلى ذكريات ملؤها الخوف من خسران حبيبها الذي قاتلت في سبيل الاقتران به، صفاته الحميدة وشجاعته الملفتة للأنظار أثارت فيها روح الأنوثة التي تنعم وتلجأ إلى حصن

الأمان الشامخ، هذا الشعور أشعل في قلبها الهيام وحبّ صفات الشجاعة والإقدام.

كرار، لم يكن مجرد ابن خالتها الوحيدة (شفيقة) التي صارعت المحن في رعاية ابنها الوحيد، هي الأرملة التي فقدت زوجها على يد قائد الضرورة الأوحد، الذي لا ثاني له في هوجاه ورعونته، وحبّه للقتل وسفك دماء الرّجال الأحرار، دموعها كانت تسيل على خدّيها بغزارة، وهي تسكب الماء وراءه. أما خالتها، فكانت تهلّل بالدّعاء والذّكر وآيات الحفظ لولدها الشجاع، مشاعر وهواجس متضاربة مع بعضها، جلست تحاول إسكات زوجة كرار دون جدوى.

في معسكر (سبايكر) كان كرار يأخذ تدريباته من مدرّبيه، ويحرص على التّعلّم بسرعة على حملِ السّلاح واستعماله ومعرفة تفكيكه، وبقيّة الشّؤون الحربيّة والقتاليّة.

في صباح يوم الخيانة العظمى للعراق وأهلهِ تم تسليم مدينة الموصلِ الحدْباءَ إلى زمرة الإرهاب المجرمِ (داعش) مع حملةٍ من التّهويل الإعلامي الذي زرع الرهبةَ من العفريت القادم من أرض الشّام.

وجد كرار نفسَه ينساق إلى خارجِ المعسكر بسببِ تخاذل بعض ضباط المعسكر، طيبته وطيبةُ رفاقه جعلته يأمن لبعض من ارتدى لباسَ (مشايخ) عرب صلاح الدين، فركبَ مع رفاقهِ في السيّارات التي كانت القفص المعدّ لصيد الفريسة.

في الطريق، خرج عليهم رجال يرتدون ملابس (طالبان)، غبر شعث الشعور واللّحى، يحملون في أيديهم أنواعاً منَ الأسلحة الأمريكية الحديثة، أوقفوهم وانهالوا عليهم بالسبّ والشتم، ثم اقتادوهم إلى جهة غير معروفة، الصدمةُ والذّهول عامل مساعد لكبح التفكير، المجهول كائن مرعب يخيف حتى الفرسان وسرعان ما يتلاشى مع اتّضاح الصورة، هم أسرى بيد ليست غريبة، رغم اختلاف لباسِهم القصير، ولحاهم الطّويلة، فهم أبناء من اقتادوا أباه إلى سجنِ أبي غريب.

تلك القصور الفارهةُ التي بناها هدّام المقبور أصبحت مأوى للكلاب الضالّة، مع وحوش شبه بشرية، لا تنتمي لبني الإنسان.

لم يكن كرار يحلم في يوم من الأيّام برؤيتها والدخول إلى حدائقها وغرفها الكبيرة.

كان يشتعل غضبا في داخله، كأنه بركان يريد الانفجار ليلقي بحممه إلى الخارج حتى يهدأ، مكالمة وداد مع حبيبها كرار زادتهم حزنا وقلقا، فقد أخبرها أنه في سيارة لا يعلم وجهتها الى أين، وآخر كلامه وصف لها تلك الذوات الهمجيّة المتوحشة التي أوقفت سياراتهم بقوّة السلاح، فكانت عبارتُه الأخيرة:

- اهتمّي بأمّي ونفسك وحيدر.

الأيام أمست سنين جدباء لا ينقضي ليلها من دون نفادِ دموع، وداد وخالتها العجوز يتوسّلان بالأمل، والانتظار سيف حاد يقطع في قلوبهم الوجلة، زيارة رفيق رحلته المفاجئة إلى دارهم أنارت دروبَهم المظلمة والهاربة في المجهول، جلس يروي لهم قصّةَ الخيانة والغدر.. كرار انتفض على تلك الوحوش التي استهانت بأرواح الشباب العزّل، لم يستطع الصبر على الضيم، ورؤيةَ القتل بالدّم البارد في رفاقه واحداً تلو الآخر يتساقطون إلى مياه دجلة بعد احتضان الرصاصة في الرأس.. ببسالة منقطعة النظير حصل على سلاح رشّاش وأفرغ رصاصاتَه في قلوبهم الحاقدة، في لحظات أردى منهم عدداً تشحّطوا بدمائهم القذرة.

عندما أفرغ عليهم الرصاص كان يردّد كلمة الحسين الخالدة: - "هيهات منا الذلة".

كان قلبها يتقافز بقوة، يحاول الخروج من صدرها منتفضا على الواقع المرير، بين الخوف من المجهول والسؤال الصعب. قالت وهي تكتم دموعها في محجريها:

- أخي أرجوك أخبرني، هل زوجي ما زال حياً يرزق؟

- أختي الكريمة.. لا أخفي عليك إذا قلت لك لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟! وكيف عرفت بكل هذه التفاصيل التي قصصتها علينا قبل قليل؟

- أختي.. الذي قص علينا خبر كرار هو زميل لنا استطاع القفز إلى نهر دجلة وكنت معه ومعنا بعض الشباب، عندما هرب المجرمون خوفاً من رصاصات كرار الهادرة، وبعدها قام كرار بالقفز إلى النهر، صحيح أن الدواعش قاموا بالرمي العشوائي على مياه النهر، لكن جثث الشهداء ودماءهم التي صبغت مياه النهر وسيلة نجاة لنا، عبرنا النهر وقد استطعنا النجاة بفضل كرار ودماء الشهداء.

- وماذا عن كرار؟

- كانت المياه تجري بسرعة، وقد وصلنا إلى جانب النهر الثاني، وعندما تجمعنا لم يكن كرار معنا فقد افتقدناه عندما كنا نسبح.

- هل أفهم منك أن زوجي...؟!

أخذت دموعها تنزل دون استئذان، زفراتها باتت تصرخ بالفجيعة، خالتها صرخت بصوت عال:

- يمه اوليدي كرار، رحت وعفتني بهذا الحال...

تماسك الرجل، ولملم قواه وقال:

- خالتي العزيزة، أختي.. أرجوكم اصبروا قليلاً فما زال الوقت مبكراً على الصراخ والحزن، والأمل بالله كبير.

لم تكن السباحة وسط الجثث والمياه المصبوغة باللون الأحمر أمراً يسيراً عليه، كل ما كان يفكر به هو وجه حيدر وابتسامة وداد ودعوات أمه العجوز.

حمد لله تعالى عندما أضل الرصاص طريقه وتاه في قعر دجلة، بالكاد يجر أنفاسه عند جرف الصوب الثاني للنهر، الخوف والموت ما يزالان يحيطان به، بين الأشجار جلس وتأكد من عدم وجود أحد يعرف مكانه.

كانت الشمس تحاول أن تغيب بالأفق حتى لا ترى تلك المناظر المفجعة، رفع رأسه ينظر حيث اليابسة، هناك بيوت متناثرة تعلوها صفرة الشمس، أخذ يفكر والأفكار

تتضارب كأنها داخل معركة حامية الوطيس، يشاهد من بعيد امرأة ملتفعة بعباءتها السوداء تراقب كأنها تنتظر أحدا، لا يعرف لماذا ساقته قدماه نحوها، "ربما يكون الموت منبعثاً على يديها! وربما تكون الحياة على يديها والمرأة واسطة الحياة في هذه الطبيعة، يحدث نفسه بهذه الكلمات ويعلل لعله يجد نفسه بين أكناف أمه الحنون من جديد، كانت تنظر إليه وكأنها تعرفه، عندما اقترب منها وقبل أن يتكلم قالت بصوت حنون:

- هلا بيك يمه... هلا بيك...

- خالتي.. أنا أبحث.. لا أنا أريد...

كلماته تتعثر على باب الرجاء، تبحث عن قدر يفرش أمامه الورود وألوان قوس قزح.

عندما تلجلجت الكلمات في فيه، قالت:

- يمه اوليدي تعال فوت جوه ولا تخاف، فأنت في أمان عند أم قصي بعون الله وتوفيقه.

تقدم نحوها بخطوات وما زال في القلب بعض من التوجس، أمسكت يده ودخلت معه الدار، فتحت باب؛ شاهد مجموعة من الشباب تظهر على ملامحهم أصول سومرية، ابتسمت وقالت:

- يمه لا تخاف هذولي أخوتك، وأنت في أمان هنا، ناحية العلم بيد العشائر العراقية من (الجبور) وأبناء الناحية يقاتلون داعش ولن نسلم أرضنا إلى داعش، وعن قريب راح نلكه طريقة ترجعون إلى أهاليكم سالمين.

ينظر إلى هذه اللبوة وبوده احتضانها وتقبيل يديها -لو لا الحياء والأعراف الاجتماعية-، قال بصوت مرتفع:

- أقسم بالله أنت أخت أرجال.

كل الشباب كانوا ينظرون إليها بإعجاب، شجاعتها فعلاً فاقت حتى شجاعة الرجال، امرأة لا تهاب الموت، الخوف الذي كان ينتابها هو عدم تمكنها من إنقاذ هؤلاء الشباب، لا فرق عندها بينهم وبين أبنائها السبعة، الذين حملوا السلاح ووقفوا على حدود ناحية العلم يصدون هجوم مسلحين داعش.

خمسة عشر يوماً استطاعت أم قصي إيجاد طريقة آمنة أوصلت كرار والشباب إلى منازلهم سالمين.

عندما طرق الباب، كانت تقف في المطبخ تزاول علمها اليومي وقلبها ما زال ينبض بحبه والأمل بعودة الحبيب، أسرعت لفتح الباب، سألت: من الطارق؟

أجابها: أنا كرار.

فتحت الباب بسرعة ونظرت إليه، حاولت الصمود والبقاء واقفة على قدميها، لكن جسدها المرتعش ما عاد يقوى على الثبات، قبل سقوطها؛ أغلق الباب وأخذها في أحضانه.

دولاب القدر

أخذَ يتصفّحُ الماضي، الأيامُ تمضي أمامَ عينيه كأنّها أشباحٌ سود، السعادةُ فيها لا تعدُّ مقدارَ خردلة، على أعتابِ الألمِ تقفُ السنينَ تصارع الدهشة، ما بالُ الشّيْبُ غزا مِفرقي؟ الروحُ خضراءُ نديّةٌ يزيدُها العمر ازدهارا، الجسدُ الّلعينُ يأبى الصّمودَ أمامَ دولابِ القدر.

- سيّدي، تفضّلْ بالدّخول، فقد حانَ دورك.

بالكادِ ينهضُ، تحملهُ قدماهُ، يدخلُ مع تلكَ الأحزانِ والهموم، برفقةِ الوجعِ جلسَ أمامَ الطّبيبِ المختصِّ، بعدَ سيلٍ من الأسئلةِ والاستفسارات، كتبَ له العلاجَ الّلازم.

الانتظارُ يهونُ أمامَ البحثِ عن الدّواء، ينتقلُ من مكانٍ إلى آخر دونَ جدوى، شاهدَ أريكةً أمامَ حديقةٍ عامّةٍ، أحسّ ببعضِ الرّاحة، جلس يستنشقُ الهواءَ النقيّ، عادتْ به الذّكرياتُ الجميلةُ لأربعينَ عاما خلت، كان يجلسُ في مكانٍ مشابهٍ عندما مرّتْ تلك الغادةُ من أمامِه وهي تتعثّرُ برداءِ الخجلِ والحياء، غازلها بكلماتِه الجميلةِ فحثّتْ خطاها إلى المنزل، لكنّها أخذتْ قلبَه بجاذبيّتها السّاحرة، لم يكنْ من السهلِ عليه استعادةُ روحِه

المسروقة، بعد أخذٍ وردّ، سؤالٍ وجواب، رفضٍ وقبول، زياراتٍ متبادلة، اجتمع معها في مكانٍ واحد، حجرةٍ يكسوها الحبّ، في بيتٍ فاحَ فيه عطرُ الياسمين، وزغاريدُ الأهلِ والأحبّة، وقفَ أمامَ سحرِها وكأنّهُ فارس زمانه الأوحد.

يشمّ عطراً لا يُقاوَم، فتح عينيه وإذا بغزالٍ ممشوقِ القوام، أسيلِ الخدّ، ذو شعرٍ متعرّجٍ بلونِ الزّعفران، نجلاء كحلاء تقتربُ منه، تجلسُ عن يمينه، أحسّ بدفءِ روحِها، عندما اقتربتْ منه إلى حدّ الالتصاق به، رفعَ رأسَه ونظرَ إليها قائلاً:

- هلْ ظللتِ الطّريق؟.

ابتسامتُها الشّفافةُ زادتْ من حرارةِ الموقف، قالت:

- لا، أنا اعرفُ طريقي جيّداً، فلا تقلق.

- هل تعرفين أنك من سنّ بناتي؟.

- نعم، لكن يوجد مثلي من تفضّلُ صاحبَ العقلِ الكبيرِ والتجربةِ العميقةِ في الحياة.

كلماتُها كانت تنهالُ عليه كأنّها بلسمٌ لجروحٍ باتت بلا علاجٍ ناجع، صمتَ برهةً لروعةِ الجمالِ الفاتن، قالتْ له:

- ممكن هاتفكَ المحمول؟.

لم يتوانَ، فأصبح المحمولُ بين أنامِلها النّاعمة، سجّلتْ رقما وأرجعتْهُ إليه بلطف.

- سجلت لك رقمي، لتحديدِ موعد.

- متى اتصل؟.

- وقتما تحب.

وقفتْ؛ فوقفَ لتوديعها، اقتربتْ منه حتى عانقتْهُ لبرهةٍ وبعدها أعطتْهُ قبلةً على خدّهِ أخذتْ بتلابيبِ عقلِهِ، شاهدَها تمضي كأنّها مغناطيسُ تسحبُ روحَهُ الشّفيفة، تذكّرَ ربّما الوقتُ قد سرقَهُ، فأسرعَ يبحثُ عن الدّواءِ من جديد، ينتابُه هذه المرّةِ شعورٌ بالحيويّةِ والقوّة.

دخلَ إلى صيدليّةٍ تمنّى أنْ تكونَ الأخيرةُ في مشوارِهِ المُتعبِ، أخرجَ وصفةَ الطّبيبِ ثم أعطاها للصيدليّ، الذي قال له إن الدّواءَ موجودٌ عندهم.

فرحتُه معَ الحلمِ الجديدِ زادتْه ابتهاجاً، أخذ الدّواءَ من يدِ الصيدليّ الذي طلبَ منه مبلغَ الدّواء، مدّ يدَه إلى جيبِه قاصداً محفظةَ النّقود؛ أخرجها بيضاءَ وهو يعتذرُ لشيبتهِ والصيدليّ.

خفايا الجسد

نظرتْ في مرآتها، شيء غريب تشعر به لا تفهم له معنى، ما الذي يحدث معي؟ لا أحسّ بتغيير في جسدي، لماذا أشعر أنني غريبة عمن حولي؟ تُرى ما الذي أصابني، ولماذا مشاعري مشوهة وتختلف عن مشاعر قريناتي؟ تساؤلات عجيبة؛ تطرحها على نفسها ولكنها تعجز عن الإجابة على أيّ منها، تعود أدراجها إلى فراشها وتسبح في سهاد عميق، تتمنى الوسن ورحيل الهواجس.

تنهض في الصباح مبكرة على غير عادتها، تذهب إلى العمل، تجلس إلى إحدى المكائن، تحاورها إحدى فتيات المعمل، ويبدو أنها جديدة على العمل، تبادرها بالتحية مع ابتسامة جميلة كلها أنوثة ساحرة:

- مرحباً، اسمي سوسن... وأنت؟.

- هلا وسهلا بك، اسمي كفاح.

-أنا عمري عشرون عامًا... وأنت؟.

- عمري خمسة وعشرون عاما.

- هل أنت متزوجة، لا ألمح في إصبعك خاتم الزواج؟.

- أنا عزباء... ويبدو إنّني لن أتزوج؟.

- ولمَ لا، وكل العازبات يرغبن بالزواج والأطفال والأسرة السعيدة؟.

تنهدت واعتصرت الألم في ذاتها، فمشاعرها ذبيحة، لم تشأ الإفصاح عن مكنون سرها الدفين الذي قتل في داخلها روح الأنوثة، لذلك غيّرت مسار الحوار... فهي ترغب بالتعرف على سوسن، الفتاة الجميلة ذات اللسان العذب ذي الحديث الجذاب... سهول وهضاب، مرتفعات ومنخفضات، صدر ضامر وصغير، أرض يغزوها الزغب، سطح لا يوجد فيه ليونة ناعمة ولا نضارة لبشرة الأنثى الجذابة، ملامح وجهها أشبه بملامح الرجال، روح الأنوثة لا وجود لها، فقد قتلتها روح طاغية بمشاعر الرجولة... هي تهوى الحسان وتميل للملاح، رغم صراعها ضد هذه الميول والمشاعر الشاذة، يبقى الرجل في داخل خارطة الجسد هو المنتصر... هكذا كانت معاناتها لعدة سنوات عاشتها وهي ترغب أن تكون مثل الشباب بهيأتهم وشكلهم، بلا حجاب يستر شعر رؤوسهم، وبلا عباءة سوداء تغطي أجسادهم... هي لا تريد أن تكون فتاة، بقدر ما تريد أن تكون رجلاً عاشقا ينعم بحب ومشاعر من أنثى كاملة؛ مثل سوسن ريم المدينة... الصداقة

طيف ساحر لطيف، هو فيض مقدس يأسر قلوب الأوفياء، تحققه في الواقع عطر يفوح بالشَّذى والعبير.
كفاح دماؤها حرّكت مشاعرها اتجاه سوسن، التي وجدت في صداقة كفاح معاني الدّعة والحبور، لكن هي تعيش في سيول متلاطمة من المشاعر غير المفهومة.
بمرور الأيام ازدادت فيها أواصر الصداقة والانجذاب إلى حد الكشف عن المفاتن... كفاح كانت تنظر إلى صديقتها بمشاعر خاصة تفصح عنها بأسلوب المزاح، لكن داخلها يعشق سوسن، مقاومة الحب شيء مستحيل، وكلما ازدادت المقاومة زاد انتصار الحب... سوسن كانت تخجل من كلمات صديقتها ومشاعرها الغريبة، لكن كفاح لم تكن تخجل من مشاعرها
الصادقة، سوسن كانت تتوق لمعرفة أسباب عزوف صاحبتها عن الزواج، في داخل الأنثى مشاعر أمومة تحيط بعالم الوجود... لم تتراجع عندما سنحت الفرصة في مكان لا ثالث معهما، أسرعت سوسن وقالت:
- أخبريني، لماذا لم تتزوجي؟.
كفاح تأوهت وأطلقت حسراتها:
- في داخلي رجل؛ الأنثى الكاملة أنت.
- لم أفهم كلماتك المشفّرة... أرجوك أفصحي؟.

- في جسدي يكمن رجل كامل، وروحي تعشقك، وأنا أرغب في الاقتران بك.
- كفاح، أتركي المزاح الآن، أريد جوابك؟.
- داخلي مشوّه... أنا لست أنثى... جسدي لا يحمل كل مواصفات النساء، أنا رجل في جسد نصف أنثى، مشاعري تصرخ بالرجولة.
ظهرت الدهشة على وجهها... أطرقت رأسها إلى الأرض تفكّر والذهول يسيطر عليها، أسرعت كفاح تلاطفها:
- سوسن، حبيبتي، هوني عليك.
- هل حديثك كان مزاحاً؟.
- حديثي؟... صرخة رجل سجن وقمع في جسد أنثى.
- هل حاولت اكتشاف نفسك من خلال الفحوصات الطبية، فالطب الآن متطور جداً؟.
- لا... الخوف يكبّلني، وقيود الأعراف أقوى وأقسى.
أسهبت سوسن بسيل من النصائح والتوجيهات:
- هذا الموضوع لا تهاون فيه، عليك بإصلاح جسدك، فأنت أنثى تستحق الحصول على أسرة رائعة، الطب يعالج تشوّهات الجسد، لا تدفني نفسك في الحياء، اتركي مشاعرك الرجولية، أو اركنيها في زاوية سحيقة، انطلقي وحطّمي جميع القيود التي تجتاحك.

كلماتها خرجت من قلب محبّ، اخترقت قلب عاشق، فأسرعت كفاح إلى أشهر طبيبة نسائية، كشفت عليها وطلبت منها إجراء فحوصات عبر أجهزة (السونار) وغيرها... دهشت الطبيبة، أثارت تساؤلها وإلحاحها لمعرفة النتائج:

- دكتورة... اخبريني، هل أنا فتاة سليمة أستطيع الزواج؟.

- الحقيقة، لا أعرف ماذا أقول!.

- اخبريني أني لست أنثى... أنا اعرف أنني رجل.

- فعلاً... إن ظاهرك أنثى، لكن في داخلك رجل.

كلام الطبيبة لم يكن صادماً لمسامع كفاح، شعورها بالرجولة كان يرافقها منذ مراحل الصبا والبلوغ... الطبيبة أرسلتها إلى طبيب مشهور في طب التجميل، والذي بدوره أخبرها بضرورة التحوّل. التشوّه الولادي كان السبب في حرمانها من حياتها الطبيعية، اتخذت قرارها دون تردد، استعادت هويتها الحقيقية أصبحت غايتها المنشودة، أسرعت بتقديم طلب إجازة من العمل لإجراء العملية. التقت بسوسن وكشفت أمامها عن نتائج الفحوصات وقرارها بالتحوّل، وحبها الذي سوف يصل إلى أسمى حالات العشق والهيام، أثر الصدمة على

سوسن جعلها تطلب إجازة مفتوحة من العمل، جلست في البيت وهي تتذكر كيف كانت تكشف عن مفاتنها أمام صديقتها الرجل!... كيف سأتقبل الواقع الجديد؟ أنا خسرت أغلى صديقة إلى قلبي، كيف لي أن أقف أمامها من جديد؟ قطعاً سوف أبدو أمامه عارية الجسد... أنا أحببتها من صميم قلبي، هل سيحرمني القدر منها؟... منها! مِن مَنَ؟ هي في الأصل، هو... هل أنا أحببتها، أم أحببته هو؟... إذا ما تقدمت لخطبتي، هل أوافق على الاقتران بها؟... أنا أتزوج كفاح!... ولم لا، وهي صديقتي الحبيبة، يا لسخرية القدر، سوف أجن! تساؤلاتها زادت من حيرتها، الموقف رهيب جداً، الهروب من الهواجس والحيرة سبيل خلاصها الوحيد.

قلبها أحب كفاح، وإن أصبحت رجلا، فهما شخص واحد، قلبها قرر عدم هجر من أحب، فخضعت له، البنت أصبحت رجلاً بعد عملية جراحية تجميلية، استعادت فيها كفاح ضالتها المفقودة... أصبحت بعد ثلاثة أشهر من العلاج رجلا كاملا، ولد بعمرٍ كبير... طوال الأشهر الماضية، كفاح صارع فقدان الحبيبة واللقاء بها، رغم أن صورتها الجميلة لم تفارق خياله العاشق، هو لا يستطيع تحمل فراقها، لذا حزم أمره، وأرسل أهله لخطبتها...

سوسن طارت فرحا، وتأكد عندها حب كفاح لها، فسارعت بالموافقة... كفاح حقّق حلمه باقترانه بسوسن التي أحبّت كفاح، والتي لم تكن تتصور أنها في يوم من الأيام ستصبح زوجاً لها /له.

أصفاد في معصمي

ما يزال الظلام الدامس يضرب في أعماق روحي المنكوبة، وتلك العصابة التي اغمضوا بها عينيّ ما تزال تمنع تسلل النور إليهما... كم تمنيت نجاح محاولاتي الكثيرة لكسر القيد الرابض على معصمي بقوة، لو نجحت واحدة من تلك المرات؛ لأسرعت بتمزيق العصابة السوداء التي ربطها ذاك الوحش البغيض، بقوة آذتني... ليست العصابة السوداء وحدها التي باتت هدفي الوحيد، لكن من ربطها كان هدفي أيضا.

يداي كانتا مصفدتين خلف ظهري، وفمي مكمم بخرقة لا أعرف لونها، وربما هي سوداء مثل لون قلوبهم البشعة.

هل ألوم نفسي على استمراري بالصراخ الذي أصم مسامعهم، أو أفرح لأني أزعجتهم بقوة صراخي؟.

أقسم بمقدساتي لو أفلت من جميع قيودي لفعلت بهم ما فعلته بذلك الحيوان المتوحش الذي قتل أبي بدم بارد.

آه يا أبي... لماذا تركتني وحدي بين هؤلاء الوحوش؟ كم تمنيت نجاح محاولاتي الكثيرة لإثارة غضبهم؛ فلم يقتلوني، واكتفوا بضربي وتوثيق ذراعيّ.

مجرمون... قتلوا جميع الرجال بلا رحمة، يتّموني وما أزال بعمر الزهور التي تحتاج إلى رعاية وظل الأب الحنون.

دموعي التي تسيل لم تمنعها تلك الخرقة الوقحة... آه، أمي وأخي وأختي الصغيرة، أنتم ما تزالون مصدر قلقي المزمن... سأشكر الرب كثيراً؛ إذا ساعدكم على النجاة.

أسأل نفسي التي أصابها الوهن، عن نهاية الطريق الطويل الذي ما تزال إطارات السيارة تطوي صفحاته بسرعة.

هؤلاء البنات من حولي كأنهن أصنام تهاوت صامتة، لا أسمع لهن سوى أنفاس تزفر بالألم.

لا أعرف كم الساعة الآن، قبل مدة حينما وضعونا في السيارة كانت الشمس قد شرقت منذ ثلاث ساعات، وربما تكون الشمس قد انكسفت خجلاً من أفعال هؤلاء الوحوش (الدواعش).

بدأت السيارة تسير ببطء، كثر ارتجاجها، عرفت أننا نسير في طريق ترابي، لا أعرف متى نصل إلى وكر الثعابين، قررت الموت على أن يدنس جسدي واحد من هؤلاء الشياطين، كم أكره أشكالهم البشعة التي تثير

تقززي وروائحهم العفنة التي تزكم أنفاسي، تباً لهم جميعاً، والموت لم يقترب مني.
ارتفع صوت من جهاز الإرسال يقول: (خفضوا سرعة المشي؛ الشارع فيه مطبات كثيرة).
بعد قليل ارتفع صوت القنابل والرصاص، وصوت جهاز الإرسال ينادي: (كمين أنه كمين للرافضة)... البنات من حولي علا صراخهن حتى أصم مسامعي، لم أستطع الصراخ؛ لم أكن أعرف ما يدور حولي، ربما كان من الأفضل لي أنني لا أستطيع رؤية ما يحدث... الرعب كان حاضراً عند الجميع.

صراخ الدواعش المفزع بدأ يضمحل، وحتى صوت الرصاص أصبح عبارة عن طلقات منفردة بين دقيقة وأخرى، أصوات رجال لم اعهدها من قبل اقتربت منا وبدت لهجتهم واضحة عندي، -على الأغلب أنهم سوريون-.
الذي فتح باب السيارة، قال بدهشة: نساء؟!.
أجابته إحدى الفتيات: أرجوك لا تقتلنا!.
قال: لا تخفْنَ أنتن بأمان.

صاح الرجل لأصحابه: يوجد في السيارة بنات، أظن أنهن عراقيات أسيرات.
أنزل البنات ثم أنزلني وقام بإزالة العصابة عن عينيّ وفمي، بالكاد فتحت عينيّ، أبقيت رأسي منحنياً، أزال القيود من يديّ، رفعتهما إلى وجهي لحماية عينيّ من نور الشمس، ما يزال الوقت عصراً، منظري يرثى له، آثار فضول الرجل، قائلاً:
- أمركِ غريب جداً، لماذا أنتِ دون الأخريات معصوبة عيناكِ وفمكِ مكمم؟.

على الرغم من خوفي الذي أبقيته داخلي؛ تظاهرت الشجاعة وقلت:
ـ لأني لا أخشى الموت، فعلوا بي هذا الفعل.
ـ بالفعل، الشجاعة ظاهرة عليكِ بشكل ملحوظ... "أتبع كلامه بابتسامة لطيفة".
ـ لماذا تبتسم، وهل منظرنا يسر الناظرين؟.
ـ لا أبداً، أعتذر لكِ... أنا جاد في كلامي، لو لا خوفهم منكِ لما تصرفوا معكِ بكل هذا العنف.
كلماته وأسلوبه خففت من مخاوفي تجاههم، فنحن في زمن جعلنا مطمعاً لمن هب ودب، تجرأت وسألته:

ـ ممكن تخبرني أين نحن؟
ـ أنتن في سوريا، ونحن أبناء سوريا، وأنتن بأمان معنا وبيننا.
- وها أنتِ الأن بيننا يا (لينا) وقد أثبت أخي (أكرم) صدقه وأمانته، وهو وصحبه يحاولون إيجاد طريق آمن لإيصالكم بأمان إلى أهلكم في العراق.
- خلال اليومين الماضيين، ارتحت معك جداً يا (كوثر)، الحديث معك جعل قلبي بحالة جيدة من الاطمئنان؛ الذي فقده بعد مقتل أبي وذلك الخوف والرعب الرهيب الذي قضيته أثناء السبي، لكن إلى الآن أجد في قلبي بعض الخوف من المسلمين، فداعش مسلمون ورايتهم مكتوب عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفعلوا بنا كل قبيح.
ـ لكن نحن نختلف عنهم يا لينا.
ـ وكيف تختلفون عنهم؟.
ـ نحن نتبع دين محمد وآل محمد.
ـ أوضحي لي أكثر.
فتحت كوثر جاهز الموبايل وناولتني إياه، ثم قالت أقرئي هذا الكلام، تناولته منها وبدأت أقرأ: (وَأمّا حَقُّ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَالحُكْمُ فِيهِمْ أَنْ تَقبَلَ مِنْهُمْ مَا قَبِلَ اللّهُ، وَتَفِي

بمَا جَعَلَ اللّٰهُ لَهُمْ مِنْ ذِمَّتِهِ وَعَهْدِهِ وَتكِلُهُمْ إلَيهِ فِيمَا طَلبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأُجْبرِوا عَلَيْهِ وَتحْكُمَ فِيهِمْ بمَا حَكَمَ اللّٰهُ بهِ عَلَى نفْسِكَ فِيمَا جَرَى بَيْنَكَ (وَبيْنَهمْ) مِنْ مُعَامَلَة وَلْيَكُنْ بَينَكَ وَبيْنَ ظُلْمِهِمْ مِنْ رِعَايَةِ ذِمَّةِ اللَّهِ وَالْوَفَاءِ بعَهْدِهِ وَعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- حَائِلٌ فَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّهُ قَالَ "مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا كُنْتُ خَصْمَهُ" فَاتَّقِ اللَّهَ. ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.).

أعدت قراءة المكتوب عدة مرات وفي كل مرة أفهم أكثر والعجب يأخذني مما قرأت، قلت:

ـ كوثر... لمن هذا الكلام؟

ـ إنه لسيدي ومولاي الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام... وهو أحد أئمتنا الاثني عشر من أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، نحن نتبعهم ونعمل بكلامهم بعد كلام جدهم الرسول الأعظم.

لهذا أقول نحن نختلف عن داعش، وداعش لا يمثلون الإسلام والمسلمين.

ثم يا عزيزتي... لو كنا مثلهم لما تعايشنا مع المسيحيين منذ آلاف السنين نحن الشيعة وحتى إخواننا السنة، في

سوريا والعراق ومصر ولبنان وبقية البلاد العربية والإسلامية.

ـ نعم... كلامك صحيح.

- أضيف لك شيئاً آخر... لو كنا مثلهم، لما حكموا علينا بالكفر واستباحوا دمنا واستحلوا النساء منا، أنظري إلى شعبك العراقي الذي ابتلى بالتفجيرات اليومية والتهجير والقتل الذي طالكم أنتم المسيحيين والشيعة والسنة والإيزيديين والأكراد والشبك وغيرهم على حد سواء... عموماً هل تخرجين معي عصر اليوم؟.

ـ إلى أين؟.

ـ ستعرفين لاحقاً.

لم أزر الشام من قبل، تلك الأبنية الحجرية والأشجار الجميلة تدخل السرور إلى القلب، قبة ذهبية وسط منارتين، تنبئ عن أشياء لا أعرفها من قبل، منظر هذا البناء الرائع آثار فضولي، سألت كوثر:

ـ ما هذا المكان؟.

ـ هنا دفنت زينب الكبرى المسبية، حفيدة الرسول الأعظم محمد.

ـ المسبية؟!.

ـ نعم... هي مسبية كما أنت مسبية.
ـ عجباً... حفيدة الرسول محمد، تسبى كما سبيت أنا، لكن أليست هي مسلمة؟.
ـ وهل داعش أخذوا المسيحيات والإيزيديات سبايا وتركوا المسلمات؟.
ـ بالطبع لا.
ـ هؤلاء الدواعش، هم أبناء الذين قتلوا الإمام الحسين بن علي، ومعه أخوته وأبنائه وأبناء عمومته وأصحابه، ومنهم وهب المسيحي وجون الأفريقي في أرض كربلاء، لم يراعوا النبي في حفيده وريحانته من الدنيا وسيد شباب أهل الجنة.
ـ عجيب... هل الزمان يعيد نفسه؟.
ـ لا عجب يا لينا، ففي كل زمان ومكان تجدين للباطل دولة وللحق أناس مستضعفين وعدهم الله بنصره، حيث قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}.
ـ كوثر... أريد الدخول إلى هذا الضريح، قلبي يحترق شوقاً إلى رؤياه.
لا أعرف لماذا كانت تسيل دموعي وأنا أدخل إلى ضريح هذه السيدة المسلمة، حفيدة نبي الإسلام والمسلمين،

في زمانها قتلوا أخوتها وسبوها وذويها، شيء ما يجذبني إليها، ربما لأني ذقت طعم السبي والخوف والرعب من المجهول، وشاهدت قتل والدي، وهي مثلي شاهدت قتل أخوتها.
بكيت كثيراً في حضرتها حتى أحسست بالراحة، لم أكن أتصور أنني سألقي في هذا المكان عن كاهلي أسىً كان يمزق صدري الحزين، حتى أنني طلبت البقاء أكثر، عندما طلبت مني كوثر مغادرة المكان والعودة إلى المنزل.

كانت عودتنا بعد غروب الشمس، وفي الليل طلبت من كوثر الحديث عن قصة كربلاء وسبي زينب.
بدأت تقص عليّ أحداث كربلاء، وتفاصيلها المثيرة، لا أعرف السبب وراء هطول دموعي كالمطر، رجال يقتلون ولا من ناصر أو معين مثل أبي الذي قتل من غير ذنب، أطفال يذبحون، أيتام ونساء يأخذون سبايا، تباً للزمن الذي يعيد نفسه بهذا الشكل المرعب.

خلال الأيام الماضية، لم أنقطع عن زيارة ضريح السيدة زينب، التي أحببتها وصارت لي المثال الحي للصبر على

المحن، حتى عندما جاء وقت سفري إلى بلدي، زرتها وعانقت ضريحها بقوة وبكيت.

لم تكن كوثر أقل مني بكاءً عند توديعي لها، لكن دموعي جرت أكثر منها؛ فهي ودعت صديقة واحدة وأنا ودعت صديقتين.

غشاء الطهر

الانتظار قلق دائم، ساعاته عقارب تلدغ جسد العروس، بعد انقضاء ليل الحنّاء، أصبحت تمشي مِثل الطاووس، تَختال بجمالها وشعرها الغجريّ المصبوغ، والحنّاء التي صبغت قدميّها وكفّيها حتى البنانَ، أشعَلت الغيرةَ في قلوب جميعِ الفتيات، هي اليوم عروس (الدجيل)، نغمات موسيقى هاتفها كأنها مقطوعةٌ لـ(جايكوفسكي) بحيرة البجع، أيقظتها فسمعت شدو كلماته الغزليّة التي حرّكت أحاسيسَها وعودَها الميّاس المتبختر.

عندما أغلق الهاتف أسرعت به أريج الذّكريات السحريّة على عادته كان يمشي في طريق إعدادية البنات، حيث شاهدَها وهي تتمايل مع الرياح كأنّها غصن بان تعلوها ورود الجوري الحمر، عندما تعثرت عثر قلبه معها فسقطا مَعا فَوق الأرض، أسرعَ إلى قلبه فأنتشله، وقَفتْ عيناه في عينيها، شَبّت في قلبِه نار العشقِ عندما نطقَت لُماها بأنغام الشكر والعرفان، رموشُها أصابتْ فؤادَه فأصبحَ هو المجنونُ وهيّ ليلى العراق؛ جلس يتحدّث مع قلبهِ: دقّات قلبي، أبطئي وتريّثي، فاليوم أُزف الوصال

وانقضى ليل الهجر والسّهادِ. الأهل ارتدوا أجمل الثياب، بألوان قوس قزح زيّنوا سيّارةَ الزّفاف، أبواق السّيّارات أعلنت انطلاق مَوكب الزّفاف.

كالمعتاد جلست أمّه عن يمين السّائق تَحمل بيدها شمعةَ العرس، العروس ارتدت فستانها الأبيض فأصبحت حمامة السّلام، جلست تعالج الخَجل والقلق، مَوكب العرس اقترب من دار أهلها، ارتفعت زغاريد النّساء، تهلّل وجهها ورقَصت أساريرها عندما دخل حبيبها ووضع يده في يدها، تاهَتْ في انعدام الوقت، غمز على يدها فأحست أنّها تجلس إلى جانبه في السيارة، رفعت رأسها ونظرت إليه، رمشاها كانا كجناحي حمامة بيضاء ترفرف بقوة، تمتمَ بكلمات زادت حمرة خَديها، إشراقة وجهها أنارت له حلكة لياليه القادمة، توقفَ السائق وترجّلَ، بضعةُ رجال يرتدونَ زيَّ الشرطة قطعوا الطريق بسياراتهم، بعدَ لحظات رجع السائق إلى السيارة، تحركَ موكب العرس بوجل يتبع سيارات الشرطة، توقفَت في شارع الكورنيش، صراخ النساء والأطفال مع زعيق الإرهابيينَ الذين كانوا متنكرينَ بزيِّ الشرطة أفزعَ العروسُ، بسرعة أنزلوا السائق وأمَ العريس، واخذوا السيارة إلى مكانٍ مهجور. رصاصاتهم المسمومةُ توغلت

في رؤوس الرجال، الأطفال والنساء كانوا هدية لمياه دجلة وطعاما للديدان، توسلاته باتَت تشبه الصدى الراجع، بكاؤها كأنه بينَ صخور بلا حياة أو حياء.
أجهضوا أحلامَها بخناجرهم، مزّقوا جسدها البكر وخلعوا روحها أمامَ أنظار حبيبها المقيّد بالحديد، هو مات قبل إطلاق الرّصاص على قلبه المقتول.

أهازيج بلا معنى

كلما اقترب موعد الزفاف وليلة الدخلة أزداد قلقها، تتحرك في غرفتها مثل أمواج متلاطمة، تعض على نواجذها، تقذف زفرات ملتهبة، تحدّث نفسها: أليس هذا هو الحب؟... ألم يكن (سيف) حبك الأول والأخير؟... لماذا الخوف أذن؟ صرخت عاليا:

- لا أعرف... لا أعرف!.

لطمت خديها، وجثت فوق الأرض، فتحت أمها الباب، وأسرعت إلى احتضانها:

- اسم الرحمن عليك، بنتي الغالية... ما بك ترتجفين؟ ما الذي أصابك!.

- لا أعرف ما بي، روحي؛ تكاد تخرج من جسدي.

سحبتها برفق نحو السرير، ساعدتها على التمدد فوق فراشها، وضعت يدها اليمنى فوق جبهتها، واليسرى فوق قلبها الذي يخفق بسرعة، بدأت تقرأ ما تحفظه من آيات القرآن، بعد دقائق سكن روعها واستقرت أنفاسها وغطّت بنوم عميق؛ وكأنها لم تنم لأيام منذ أيام طويلة. خرجت من الغرفة لما يزل القلق يصاحبها، تحدّث نفسها: هل يا

الهي أصاب ابنتي عين حاسد أم ماذا؟، لم يمضِ شهر واحد على عقد قرانها بـ(سيف) ابن أختي! يا لحظك العاثر يا دنيا، عليّ أن أشعل البخور حتى أطرد العين الحاسدة وربما الأرواح الشريرة.

في الصباح الباكر نهضت مسرعة لابنتها، دخلت عليها، وجدتها تغط في نوم عميق، حمدت الله وأغلقت الباب، لم تلبث أن اتصلت بسيف وأخبرته بما حصل في ليلة البارحة، حاولت أن تعرف منه سبب ما حصل لابنتها، سيف أنكر معرفته بالسبب واخبرها بضرورة زيارته لهم، لم تتفاجأ دنيا بزيارة سيف، دخل إلى غرفتها، أغلق الباب؛ سرعان ما انفجرت باكية، اخذ يهدئ من روعها ويضمها إلى صدره:

- حبيبتي، سوف نقدّم موعد الزفاف!.

- لماذا؟.

- حتى ينتهي قلقك وحزنك، فكلما طال الوقت؛ يزداد قلقك، وهذا ما لا أريده لك، فأنتِ حبيبتي وقرة عيني من الدنيا، يا (دنيا).

- نعم أفضل، فلم أعد أقوى على الصمود أكثر من ذلك، كلما نظرتْ أمي في عيني احتقر نفسي، تنتابني موجات جنون تجعلني أصرخ!

- دنيا... أرجوك أصبري... ستكونين سعيدة معي... ولن أخذلكِ أبدا.

- لا أدري كيف تنتابني الهواجس والأوهام... بانك ستغدر بي ولا تتزوجني

- إذن، الخميس القادم سيكون موعد زفافنا... اتركي تلك الأوهام والمخاوف جانبا.

انطلقَ موكب الزفاف يضج بالفرح، عشرات السيارات تتراقص فوق أسفلت الشوارع، زغاريد وأغاني تشدو من حناجر الأحبة، كانت تجلس بقربه والفرح يدغدغ قلبها، يحدثها، يربت على يديها، يهمس في أذنها:

- حبيبتي، لا داعي للقلق! سينتهي كل شيء على أحسن حال.

تذرف دموعا حرى على قارعة موقف أقضَّ مضجعها، تحاول التشبث بالنسيان، كانت الغرفة تزدحم بالنساء، أمهات، أخوات، مقربون، حان موعد ترك العروسين ينعمان بالسعادة، آخر من غادر كانت أمه، همست في أذنه:

- حاول أن لا تتأخر... أريد البشارة... قهقهت بنزق.

وأغلق الباب خلفها؛ أما هي فقد تناثرت دموعها على خديها وسال كحل عينيها، أسرع إليها، يجلس بقربها، يضمها إلى صدره نظر إليها مبتهجا وقال:

- حبيبتي، هوّني عليك... ألم نكن نحلم بهذا اليوم وهذه الساعة التي لا تقدر بثمن؟!.

- نعم كنا... لكن!.

- حبيبتي... لماذا كل هذا الهم، سوف أتصرف!.

- كيف لا أهتم، وقد ضيعت علينا بهجة هذه الليلة.

- حبيبتي، أتركي اللوم جانبا.

- ماذا سأقول لعائلتي لو اكتشفت أني... غفرانك ربي.

أخذ قطعة القماش البيضاء، وأخرج سكينا صغيرة من درج الكوميدينو، كشف عن ساقه، وهي تنظر إليه باستغراب، قام بغرس نصل السكين في ساقه، سالت الدماء بكثرة، راح يصبغ القماش بالدم، نهضت تساعده على تضميد الجرح، كسر طوق الخوف، لوح بقطعة القماش المضمخة بالدم وقال لها:

- هذا دم عذريتكِ...

أكثر من ساعتين مضت، تنتظر خروجه، تنظر إلى أختها ترى نفس الانتظار يشع من عينيها: هكذا هن الأمهات، يضعن القلق قلادة على جيدهن؛ حتى في ساعة الفرح.

هذا ما همست به في أذن أختها، ابتسمت أم دنيا، وقالت:

- صدقت أختاه... متى يخرج سيف؟.

ما هي إلا لحظات، وإذا بسيف يفتح باب غرفته، تصاعدت الزغاريد، وارتفعت أصوات الأهازيج، كلما تقدم العريس خطوة نحو أمه تقدمت نحوه خطوات ومعها أختها، أخذته بالأحضان وراحت تقبله، همست له:

- ها أبني... أين (النيشان)؟.

أبتسم... وضع قطعة القماش في يدها، نظرت إليها وقد أخذها الذهول، أرادت أن تقول: (هل ذبحت زوجتك؟) كانت قطعة القماش البيضاء مغمورة بالدم الأحمر، انطلقت الزغاريد وارتفعت معها الأهازيج، نظرت أمه إلى قطعة القماش الممهورة بالدم ابتسمت بفخر وتمتمت بانبهار:

- ابني فحل كأبيه.

شفاهٌ صفيقةٌ

ذلكَ الصَّمت الَّذي كانَ يكسوها تناثر مثلَ قطرات المطر، أفاقت على لحن الكلمات العارية إلَّا من خجل الأنوثة، ضربت وجهَ الأرض بخلخالها المترنحِ كأنّه سكير يتراقص في حانات الَّليل، ألقت جسدها الغضّ فوق سرير السَّهاد، حزن يفور بالمقل، بدأ ينساب نحو وادي الواقعَ، أخيرا أطلقت زفراتها النَّاريةَ مثلَ حمم البركان الهادرة، سمحت لدموعها أن تسيلَ جداول فوق صحراء خديّها.

ذلكَ المشهد من فلم خرافيّ بقي عالقا رغمَ الصَّراع... تلطم على وجهها وصدرها لعلّها تصحو، تفيق من كابوسها المرعب حدّ الجزع، يداه تداعبها.. تلاعبها.. تجردها من أحلامها البريئة.

شفتاه تلتهم شفتيها الّلتين كانتا بطعم ولون الفراولة، تنهار بين ذراعيه كأنها قطعةُ حرير تلامس حواس الجَسد. تاهتْ في انعدامِ الذات وتشابه الأحداث... تسأل نفسَها المحطمةَ، تنهال الصّور في ذاكرتها المضطربة، هل كان يجردها من عفتها... أم كان يغتال روحها العاشقةَ.

دخلت أمّها وجلست إلى جانبها، حضنتها ووضعت رأسها فوق صدرها الدافئ، قالت:

- ابنتي الحبيبةُ إلى متى تكتمين سبب حزنك، زوجك أتصل بنا عشرات المرَّات وأنت ترفضينَ الحديثَ معه؟ دموعها تتناثر، شهقاتها تتصاعد، كأنها تصارع الموت.

- بنيَّتي الغاليةُ ارحمي ضعفي وخوفي عليكِ... حمِّليني همك، تنفسي بعض الرّاحة، هل زوجك ضربك أو جرحك بكلمة...؟

تأوَّهت وخرجَ صوتها كأنَها حمامة مذبوحةٌ:

- أمُّي باللَّه عليك لا تسأليني عن ألمي... ولا تذكري اسمَ هشام أمامي مطلقا.

- حبيبتي لك ما تحبين لكن حاولي أن تهدئي وتخلدي للنوم.

وضعت رأسَها فوق وسادتها وسرحت في ذكريات الشُّهور الماضيةُ، نظرات متبادلة، تحولت إلى إعجاب، جمالها ورقتها تثير غريزة الرِّجال من أمثاله، عينان ناعستان، شعر بلون الزَّعفران حريري الملمس، هيفاء كأنها غصن بان، تجيد سرقة القلوب من أوعيتها، تقتنص اللَّحظةَ المناسبة، تصطاد فريستها بسهام لحاظِها السَّود.

لم تكنْ تعرف أنَّها تلبّي طموحاته وتطلعاته وحبّ الذّات والتَّملُّك... سيدتي الرَّائعة عيناك ينبوع أنثوي ينضح بالعبير، روعتك لا تقاوم، قلبي سقط أسيرا في لحاظِ عينيك، روحي جذبَها جمالُك وحلاوة قدَّك الجلنار. كلماته السَّاحرة سرقت مني تلافيف عقلي، أعمت بصري وبصيرتي عن رؤية سلبياته، هواي قادني نحو تيَّارات أمواجه المتلاطمة، عواصف حبّي الهوجاء أجبرت والدي، فاقترنت به، والدي لا يطيق النَّظر في وجهِه المظلم الكالح.

على زقزقة العصافير الجميلة ومع بزوغ الفجرِ قامت من فراشها، غسلت وجهها، ارتدت ثيابها، تعطرت وخرجت إلى المتنزه القريب من دار أهلها.

جلست تراقب شروق الشّمس، وجمال أشعتها الفضية. بغتة جلس أمامَها، ذُهلت، تسمَّرت فوق الكرسي، وضعت يديّها على وجهها وقالت:

- أرجوك أغرب عن وجهي لا أريد رؤيتَك.

- حبيبتي أرجوك أسمعيني.

- ماذا أسمع... وأنا من شاهد تلكَ البلهاءَ بين ذراعكَ وفي أحضانك، هي تشبهني جدا بغبائها، لكن من تكون... ومنذُ متى تعرفت عليها...؟

- حبيبتي أرجوك سامحيني إنَّها نزوة عابرة، وستبقين أنت بحياتي.
- لا أتصور إنَّها نزوة؛ طالما اقترفتها مع نساء كثيرات.
- أرجوك سامحيني إنَّها الأخيرة، وسوف تَبقين الأولى في حياتي.
- بل أنا لست أوّل غبية أعطيكَ ما رامَ أمثالُك من الرِّجال، ولن أكون الأخيرةَ فالغبيّات من أمثالي الجميلات كثر.
أدارت ظهرها إليه، وظلّ الأمل يحوم حول نسيان ذاكرة الجسد.

أشواق وأشواك

لوعة الفراق تزيد من حرارة الاشتياق، تضطرب أحوال المرء عندما يدق الحب أبواب الروح، لا أعرف سبيلا لتحقيق الاستقرار في نفسي، قبل غروب شمس بغداد، أصعد إلى سطح دارنا في حي (البتاويين)، على الرغم من اعتدال الطقس والمناخ الجميل في سبتمبر، إلا أنني كنت أتصبب عرقا؛ وأنا أركض خلف سراب الأحلام الناقصة، بنت العشرين ذات الجسد الرائع والقوام الرشيق، ما زلتُ مستمرة في دراستي الجامعية في كلية الفنون الجميلة/ قسم الرسم. في الغرفة الواقعة على السطح كنت أضع أدوات الرسم، حملت اللوحة والمسند إلى خارج الغرفة، وضعتها عكس مغيب الشمس، وقفت اخلط الألوان الزاهية بريشتي الناعمة، بدأت اصبغ القماش الأبيض، مع كل حركة يخالجني شعور غريب وكأن هذه اللوحة البيضاء هي روحي النقية التي بدأت تفقد نقاءها بعد ذلك الموقف الجنوني الذي حصل في حديقة الكلية بين الأشجار الكثيفة مع زميلي الوسيم، لم أكن أتوقع أن تصل الجرأة به إلى هذا الحد غير المتوقع،

ذلك البهلوان كما أطلق عليه، استثمر وقت الغفلة الممزوج باللاشعور؛ طبع قبلة بشفاهه الحارة فوق سطح خدي المرمري، قبلة غادرة أشعلت نيران قلبي الصغير الذي صار يعزف موسيقى وأغانٍ لم أكن أعرفها من قبل، في حينها وقفت مذهولة لبضع ثوان، ثم أخذت ألتفت يمينا ويسارا والذعر حليفي خوفا من العيون التي كانت تسترق النظر، حاول سامر زرع الاطمئنان في قلبي المرتجف كالمرجل المغلي، فقط اطمأن قلبي فعلا؛ عندما تيقنت من خلو المكان من أعين العذال، على الرغم من أن شعوري كان مزيجا بين المعقول واللامعقول وبين الرفض والقبول، إلا أنني كنت متأكدة من مشاعر وأحاسيس حبيبي، لكن وجدت في تأنيبه راحة لضميري الذي بدأ يؤنبني على عمل لم اقترفه، حدثتني نفسي:

- وما ذنبي أنا فيما فعل سامر؟.

- أنت من فسح المجال أمامه يا بنت، لا تدعيه يكرر فعلته من جديد.

غروري وأنوثتي ترغب بالمزيد، نداء أمي من وسط حوش الدار طوى صفحة الشرود مع ذكرى بطعم العسل، أطللت الحوش وأعلمت أمي بمكان تواجدي، رجعت إلى لوحتي فوجدت فيها أشياء لم أتوقعها، أشجارا وشمسا،

ساقية يجري فيها الماء، قلبين متقابلين أخترقهما سهم أسود، ينزفان دما.

ابتسمت فرحا على موسيقى لوحتي المجنونة التي تكونت في لحظة من اللاشعور، حيث كان للعقل الباطن سطوة على الواقع، توجست في نفسي خيفة من رؤية أمي لها؛ أخذت اللون الأبيض وأخفيت القلبين والسهم والنزف الأحمر، جمال الطبيعة الخلابة في لوحتي أشرق بأمل وتفاءل لقادم أيامي.

***

تصفيق ناعم خفيف، جاء من خلفي، ألتفت؛ فوجدت أمي التي أخذتني بالأحضان مع قبلات شفافة زادت من نسبة الفرح المختلط بالخجل والذي ذكرني بلحظة يوم مضى مع الحبيب.

- ماما شكو، خو ماكو شي؟

- ماما ما كو شي، بنتي الغالية وأحب اشبكها وابوسه.

أخذت أمي تنظر إلى اللوحة، تذكرت ممانعة والدي الحبيب في دخول كلية الفنون الجميلة، عندما ظهرت نتيجة امتحان مرحلة الإعدادية، كانت درجاتي عالية تؤهلني لدخول كلية الآداب، هو يعشق اللغة العربية ويعشق الأدب والشعر والسرد والنقد الأدبي، كان يرغب أن يرى في أشواق شاعرة وكاتبة وروائية لها أسمها

الكبير وحضورها في الساحة الأدبية العراقية والعربية، هذه الرغبة لم تكن تأتي لولا معرفته بقدراتي؛ فقد كتبت الشعر والقصة والخاطرة بموهبة منقطعة النظير، أنا أملك خيالا واسعا وخصبا، لكن على الرغم من هذه القدرات الذهنية؛ كنت أميل إلى فن الرسم والنحت أكثر، وهو ما قوى رغبتي بدراسة فن الرسم والفنون الشبيهة، وبالأخير تحققت رغبتي بفضل أمي التي أقنعت والدي.

قبل نزول أمي من سطح الدار طلبت مني النزول قبل أن يجن الليل وتختفي الشمس في تخوم الأرض، هي تخاف علي من البقاء في مكان مظلم دامس، مع نزول أمي هطلت دموعي بسرعة مثل حبات مطر مصدرها سحابة صيف، على الرغم من ممانعته لرغبتي في الدراسة إلا أنه بقي يشجعني بقوة على التفوق في دراستي، وكان يفتخر عند حصولي على أعلى المستويات وخطط معي لإكمال الماجستير والدكتوراه بعد التخرج من الجامعة، ذلك الأب الحنون؛ خطفته يد الإرهاب الأعمى، لا زلت أتذكر ذلك اليوم الأسود، في عطلتي الصيفية الأولى وبعد ظهور نتيجتي وفرحة الجميع بها، على عادتي كنت أهيئ وجبة الإفطار مع أمي في المطبخ، وضعت (الصينية) وجلست مع أبي وأمي،

كنت أحاول أن يكون أخي الوحيد والأكبر معنا على تلك المائدة المستديرة، باسم يستيقظ يوميا بعد آذان الظهر، فهو يتولى إدارة مطعمنا الصغير في ساحة الأندلس القريبة من مبنى اتحاد أدباء العراق، بعد عودة أبي ظهرا من العمل للراحة.

أخذت أضرب فخذيّ بدون شعور: (كم تمنيت لو كنت أعلم بحدوث الانفجار الانتحاري في ذلك اليوم، لما أيقظت أبي من نومه، تبا لذلك الجسد العفن الذي قاد السيارة وأوقفها أمام مطعم أبي، أيها الحاقد ما ذنبي وذنب أمي حتى جعلتني يتيمة الأب وجعلت أمي أرملة بلا رفيق وحبيب، أقسم أن لا قلب ينبض بالحب لديك، ولا عقل ينير دربك الأسود ولا دين يمنعك من انتهاك حرمة إزهاق الأرواح، أيها الجرذ الجبان، أذهب ومزق جسدك القذر في جحوركم بعيدا عن أزهار بلدي)، لم أكن أعلم أن صوتي ارتفع عاليا حتى وصل إلى أمي التي صعدت بسرعة وعانقتني وأخذت تبكي معي إلى حد التعب.

***

باسم يقضي أغلب النهار والليل في المطعم الذي تحول إلى خراب بعد الانفجار الهائل الذي أودى بحياة أبي واثنين من العاملين معه وحياة عشرات الضحايا من

الناس الأبرياء، ساحة الأندلس التي ابتليت بأكثر من عمل إرهابي بسبب موقعها المهم في مدينة بغداد وتواجد بعض المستشفيات الكبيرة في محيطها، بعد مدة قصيرة من الانفجار استعاد فيها باسم زمام نفسه، فأصلح المطعم وعاد إلى سابق عهده يستقبل الزبائن من جديد، رغم الوجع والحزن؛ يفرح عندما يزوره بعض أدباء العراق، ويتحدثون عن أبي بكل خير وحب، أبي يعرف أكثر أدباء بغداد فهم يرتادون مطعمه ويعرفون اهتمامه بالأدب... أغلبهم اهدوا إليه أعمالهم الأدبية من شعر وقصة ورواية.

لاحظت عودة أخي اليوم على غير العادة، ما تزال الساعة الثامنة مساء، بقيت أراقب تحركاته، شاهدته يصعد السلم، انتظرت ثلاث دقائق، ثم تبعته خلسة... صعدت السلم دون أن أحدث صوتا، وقفت عند باب السطح أبحث عنه، شاهدته وهو يقف بجانب الحائط المطل على سطح بيت جيراننا أبو (سعاد)، بعد لحظات ظهرت سعاد؛ وقفت أمام باسم واضعة يديها بين يديه، عرفت سره فقررت النزول دون أن يحس بي أحد.

في الصباح انطلقت إلى كليتي والشوق يحدو بي نحو سامر الذي وقف أمام باب الجامعة مبكرا حتى يكون

أول من يحتضن حبيبته، -هذا ما كان يفكر فيه لولا خوفه من المجتمع كما أخبرني سابقا- استقبلني بدل الأحضان بابتسامة شفيفة وأمسك يدي مثل كل مرة - كما كنت أحلم- دخلنا سوياً وانقضى الوقت ما بين المحاضرات وبين اللقاء أثناء فترة الاستراحة، وعند الخروج من الجامعة اتفقنا على اللقاء في متنزه الزوراء عصرا هذا اليوم.

كنت أعرف أن عصر هذا اليوم تذهب أمي إلى الدكتور في شارع السعدون مع جارتنا أم سعاد، لذا أكملت استعداداتي للخروج من البيت، ارتديت (البوشية) وضعت العباءة فوق رأسي وخرجت مباشرة بعد خروج أمي، وجدت سامر يقف في المكان المتفق عليه، ومضينا إلى الزوراء، في مكان بعيد عن الأنظار جلست أمامه ورفعت الغطاء عن وجهي، كنت ارتجف من الخوف والخجل، يرى سامر في ملامحي المضطربة رعبا أضاع لحظات الرومانسية، حاول أن يخفف عني، أمسك يديّ:

- لماذا أنت خائفة؟.

- هذه المرة الأولى التي أخرج فيها معك خارج الكلية.

- ألم أطلب منك عدم لبس الخمار والعباءة، فأنهما يثيران الشبهة في مثل هذه الأماكن؟.

- أوضحت لك من قبل، أنني أخاف أن يرانا أحد يعرفنا، فلست مستعدة لأية فضيحة.
- لا تخافي لن يحصل هذا الشيء.
من بعيد كانت عيون أمن المتنزه تراقبنا في غفلة تامة منا، سامر لم يكن يصبر على سرقة قبلة من خدودي المتوردة، على عادته الفنية، أخذ يمثل علي مشهد درامي في سبيل تنفيذ مخططه، فأنا لا اسمح له بالقبلة أبدا، هو ممثل حاذق ينجح في كل مرة، في لحظة مناسبة سرق من خدي قبلة أثارت غضب حارس أمن المتنزه؛ فهجم علينا، حركة أقدامه نبهتنا، سامر استطاع الهروب بتشجيع مني، لكني لم أتمكن من الهروب، أمسك بي الحارس واقتادني إلى مركز شرطة المتنزه، دخلنا إلى غرفة الضابط مع مجموعة من الشرطة، سأل الضابط قائلا:
- عريف حازم منو هذي وشمسويه؟.
- سيدي الحرس شافوها وي وأحد شرد جان يبوسه!.
ألتفت الضابط إلي قائلا:
- بنتي انتي منين ومنو أهلج ومنو الولد اللي جان وياج؟.

تمالكت نفسي وأشرت إلى الضابط أن يقترب مني، عندما أقترب همست في أذنه:
- أستاذ أرجوك أخرج الجميع من هنا حتى أتحدث معك بصراحة.
استجاب الضابط فأمر الجميع بالخروج، أُغلق الباب علينا، رفعت الخمار عن وجهي وقلت:
- أستاذ أرجوك لا تخذلني ولا تفضحني أنا أخطأت بالخروج مع زميلي، هو يحبني وسيطلبني للزواج من أهلي قريبا، وأقسم لك لن أكررها ولن أخرج معه إلا وأنا زوجة له.
الضابط إنسان شريف، يعرف معنى الفضيحة ويعرف ماذا تفعل الأعراف في مجتمعنا في مثل هذه الحالات، التي تزهق فيها أرواح محبة بريئة، نظر إلي وقال:
- بنتي أرجو ان لا تكرري مثل هذه الفعلة بالأيام القادمة.
تحرك الضابط نحو الباب، طلب مني أتباعه، سرت خلفه إلى أن وصلنا إلى باب المتنزه الرئيس، نصحني مرة أخرى وودعني بكل أدب.
مشيت ودموعي كانت تنزل بغزارة، تجربة كانت ثقيلة على نفسي، دقائق سمعت صوت سامر من خلفي يقول:
- أشواق لا تخافي أنا معك.

أوصلني إلى مكان قريب من الدار وظل يشيعني بنظره حتى ولجت من الباب، أمي ما زالت عند الطبيب، وأخي في المطعم، دخلت إلى الحمام أغسل رذاذ المحنة عن جسدي المتعب، خرجت وما تزال روحي مثقلة بالحدث، أردت الحصول على فرصة للترويح عنها، فكرت بسعاد، صعدت إلى السطح وناديت عليها، بعد السلام أخذت أحدثها عن نفسي وطموحي وعن الحب الذي أنتظر زيارته، شاهدت في وجهها احمرارا، فقلت لها يظهر عليك أنك تحبين، أنكرت في البداية، لكنها اعترفت بعد أن واجهتها بمعرفتي عن علاقتها بأخي واللقاء معه في نفس هذا المكان، رأيت خوفي ذاته في عينيها، طمأنتها ووعدتها بأني سأكون سببا في زواجها من باسم قريبا.

***

في جلسة خاصة مع أمي رتبت معها موضوع زواج أخي، أمي كانت تنتظر هذا اليوم بشوق بانذخ، كلنا بحاجة إلى الفرح والسرور، رغم جراحنا وجراحات بغداد العميقة، بغداد دوما تنتصر بوجه الإرهاب الذي يريد قتلها، كم هذا الإرهاب أعمى وغبي؟ متى يدرك أن بغداد هي التأريخ وهي الحضارة وهي كل معاني الجمال والحياة، غبي من كان يظن أن بغداد ستموت.

باسم كان يخشى على مشاعر وأحاسيس أمي، لذا بقي صامت يكتم حبه ورغبته بالزواج من سعاد، -هذا ما عرفته من سعاد في لقائي الأخير معها- على الرغم من مرور أكثر من عام على استشهاد أبي إلا أنه فضل الصمت على الكلام، بعد عودته ليلا من المطعم، فتحت معه موضوع الزواج بحضور أمي... أراد أن يطوي صفحة الموضوع، لكن بعد إلحاح أمي وحديثي معه وافق بمشروع الزواج وبناء أسرة جديدة في بيتنا البغدادي، عندما سألته: هل يوجد في بالك بنت معينة؟... عاد علي نفس سؤالي، فقلت له نعم، قال من هي؟!... قلت سعاد بنت جارنا، رحب دون أن يثير انتباهي وانتباه أمي إلى علاقته المسبقة مع سعاد... وأنا كتمت ما كنت أعرفه.

كم تمنيت أن يكون أبي معنا في مثل هذا اليوم السعيد، يوم زواج أبنه البكر، نفس هذا الشعور كنت أراه في ملامح وجه أمي وباسم، رغم السعادة التي تغمرنا اليوم إلا أن مكان أبي لا يعوض.

في اليوم التالي وبعد عودتي من الكلية، خرجنا العصر أنا وأمي إلى بيت سعاد، عندما فتحت سعاد الباب لم تتفاجأ بنا، فليس غريب عليها زيارتنا لهم، وهذا دأب أغلب العوائل البغدادية التي لا تفضل الانطواء على

نفسها، جلسنا مع سعاد وأمها، أمي فتحت الموضوع بالصلاة على النبي واله، وجه سعاد صار يتموج بألوان مختلفة، أما أمها فلم تتوان حتى وضعت يدها على فمها وأطلقت (هلهولة) دوت في وسط الدار.

بعد أقل من شهر تزوج أخي من سعاد وسط فرح الأقارب والجيران والأصدقاء، عرس باسم يوم جميل لن أنساه فهو الفرحة الوحيدة بعد الحزن والأسى الطويل على فقد أبي، باسم قرر أن لا يبتعد عن البيت وصمم أن تكون دخلته فيه، طبعا هذا القرار ارتحنا له كثيرا، فنحن لم نعتد على البقاء لوحدنا في البيت أنا وأمي.

وجود سعاد معنا في البيت زاد البيت بهجة وحياة، حتى باسم صار لا يتأخر خارج الدار ليلا.

علاقتي بسامر صارت تكبر على الرغم من قراري بعدم الخروج معه خارج الحرم الجامعي، يكفيني أن ألتقي به يوميا عدا يومي الجمعة والسبت، بقي يلح علي بشأن الخطوبة، كنت أرغب بما يريد لكن مخاوفي النفسية كانت بلا حدود، كنت أجيب على تساؤلاته: - دراستي حاليا أولى بالاهتمام، وما بقي على التخرج سوى بضعة أشهر.

(عند الامتحان يكرم المرء أو يهان) كلمة كلما أتذكرها أحن إلى حضن أبي الذي كان يقولها لي على الدوام في أيام امتحانات أخر السنة، هذه المرة تذكرتها في كل يوم مضى علي وأنا أكتب سطور بحث التخرج، دموع الفرح تنزف من قلبي وأنا أقف بين زملائي زميلاتي في حفل التخرج، على الرغم من حضور أمي وباسم وسعاد، إلا أن قلبي كان يخفق بقوة لدفء حضن أبي وصدره، وفي ذات الوقت كان وجود سامر يسرني ويزيد علي سلوان مرارة فراقه.

بعد ستة أشهر من تخرجي، رزق باسم وسعاد بمولود جميل، حتى يبقى اسم أبي في بيتنا أسماه باسم (يوسف)، الدنيا لم تسع سعادة أمي التي باتت لا تستطيع مفارقة يوسف بضع ساعات، عن نفسي كنت أضع أخر سطور في روايتي الأولى، التي كتبت في إهدائها:

إلى ذلك الملاك البشري

اهدي سطور روايتي الأولى...

علني أوفيه بعض حقه...

وأحقق له جزء من أحلامه...

إلى روح أبي في السماء.

أشواق.

فاجئني دخول باسم إلى غرفتي، وجهه كان يتلألأ ويشع والابتسامة زادت حيرتي فيما يخفي، جلس بقربي وقال دون مقدمات:

- اعترفي يا بنت، هل تعرفين شاب اسمه سامر؟.

ما بين القلق والتوتر، حاولت السيطرة على زمام نفسي، والمبادرة مني أفضل، حتى أكون أقوى من الوشاية، فقد يكون هناك شخص قد وشي لباسم عن علاقتي بسامر، فقلت:

- نعم.

- ومن أين تعرفينه؟.

- هو زميلي في الجامعة.

- لكن هو في قسم التمثيل، وأنت في قسم الرسم؟.

- نحن في جامعة واحدة ويحصل فيها تعارف وهو ممثل موهوب نشاهده في عروض على مسرح الجامعة.

ضحكات باسم أثارت في نفسي القلق أكثر، صرت أتوسل إليه أن يخبرني السر وراء سؤاله عن سامر، فجأة سكت عن الضحك وقال:

- لا تخافي يا فنانة، أو أقول يا أديبة أفضل؟ سامر شاب طيب جاءني إلى المطعم قبل ثلاثة أيام وطلبك مني، وأعطاني رقمه وعنوانه حتى أسأل عنه واتصل به بعد

سؤالي عنه، وقد سألت عنه وعن أهله وعرفت أنه وأهله أناس طيبون، هل أنت موافقة.
على الرغم من المفاجأة، إلا أنني أحسست بالراحة عندما فهمت أن لا وشاية في الموضوع، بقيت ساكته وساكنة لا يتحرك لي طرف، ضحك باسم وخرج من الغرفة.
***
بعد اللقاء بأهل سامر؛ أحببت أمه وأخواته، كن طيبات وكلامهن أراح نفسي، كنت متخوفة من الخروج إلى عائلة لا تتوافق معي، لا أرغب في حياة تشوبها المشاكل، كلما أقترب موعد الزفاف؛ تضطرب نفسي على الرغم من حبي الكبير لسامر، لم أكن أتخيل في يوم من الأيام أن أترك أمي والبيت الذي ولدت فيه وعشت طفولتي أترعرع في أحضان أمي وأبي، كل شبر وكل جزء ومكان في هذا البيت له ذكرى تفوح بعبق الحب والحنان، زواج باسم ووجود سعاد ويوسف وتغيير وضع أمي الصحي إلى الأفضل، هونت علي الاستقلال بحياة زوجية سعيدة في بيت أخر، سامر لم يكن يترك يوما يمر دون الاتصال بي، أما عبر الإنترنت أو عبر خط الموبايل، عالم الإنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي كان لها الفائدة العظمى في زيادة معرفتي بأسرار الإبداع السردي، كنت أطلب صداقة أدباء عراقيين وعرب كبار، عندما أعرض

عليهم نص قصصي أو شعري لا يتوانون في إرشادي إلى مواطن الخلل والضعف، استفادتي من تعليماتهم فضل لن أنساه مدى الحياة.

***

عرسي كان أحدوثة الجيران في حينا، فرحتي اكتملت عندما أغلقت الباب علي وسامر في فندق عشتار المطل على نهر دجلة، مرت الساعات مثل حلم وردي يترك ذكراه الجميلة محفورة بإزميل على جدار الذاكرة، حبي بعد الزواج بدأ يصل إلى العشق والهيام، البهلوان أخذ يشق طريقه نحو الإبداع والتميز في أدواره التمثيلية، لم أكن أتركه وهو يؤدي دورا على خشبة المسرح، حتى كنت أحضر تصوير مشاهد مسندة إليه، كنت فرحة جدا لما يؤديه، لا أعرف لماذا كلما أرى نفسي أسير على طريق الإبداع، تخطر على بالي كلمة: (من رحم الوجع يولد الإبداع)، كلما انظر إلى الكتب التي تركها لي أبي دون رجعة، أجد نفسي الرابح الأكبر من هذه الإهداءات فقد جنيت ثمار المبدعين وازددت معرفة بفنون الأدب العراقي وجمالياته الإبداعية، وقد تمكنت من زمام خيالي حتى كتبت القصة القصيرة والشعر، وقبل زواجي من سامر انتهيت من كتابة روايتي الأولى، لم افرط بالكتب التي أجد فيها روح وريح أبي، حتى سامر يعرف

كم تعني لي هذه الكتب، فخصص لها مكانا في غرفة نومنا.

سامر حتى بعد الزواج لم يترك عادته الأسبوعية في ارتياد شارع المتنبي، حيث يجد نفسه في صحبتي معه قمة السعادة، هناك يلتقي بأصدقائه الفنانين من خريجي كلية الفنون، وكلما تقع عيناه على رواية جديدة لكاتب أو كاتبة عراقية يتمنى أن يحقق لي ذلك الحلم الوردي، أخذ مني الرواية ووضعها بيد أديب متمرس، بعد أسبوع التقى به وكان رأيه مشجعا لطباعة الرواية، بعد فترة ليست بالبعيدة، أمسكت روايتي التي أصبحت حقيقة، بكيت على الرغم من السعادة التي غمرتني، كنت أتخيل منظر والدي وهو يضعها بين يديه، كنت أعرف كم سيكون فخورا بي.

في شارع المتنبي، شارع الأدب والفن والثقافة والعلوم وكل ما هو جميل وعطر، الشارع الذي يمثل العراق وبغداد الثقافة والفنون، جلست أمام دار النشر أوقع روايتي الأولى (حلم أبي) وسط جمهور جميل كان المشجع نحو الاستمرار على الطريق الذي عشقه والدي.

آهات الفقد

أتماهى مع نفسي في صراع محتدم، تضطرب جميع أعضائي كأنها شظايا تركض نحو العدم، أبحث عن الكلمات في داخل جوف أجوف يخلو من فكرة فريدة؛ خرجت في وقت العتمة وتاهت في جو من الصخب، ضجر يعتلي قمة رأسي التي خلت من فروة ذهبت مع السنين العاتية في زمن كانت الأرواح عارية، الحبكة التي كنت أتأمل فيها جذب النفوس التي تنشد الجمال؛ تمردت في زمن تفشى فيه الوباء والغباء معا، قلبي كان يطلق الدم بقوة نحو دماغي المضطرب، حرارة مرتفعة تسري في عروقي، قصة شاردة تهيم على وجهها، كأنها غزال فلتت من لبوة.

كل محاولاتي باءت بالفشل، على الرغم لهاثي التائهة في أخاديد أنقطع عنها المياه، كنت أنتظر عودته بلهفة، كثيرة هي ابتهالات الروح التي تناجي الحبيب في سبيل محبوب آخر، مع هبوط الطائرة كان الطبيب يفحص قلبي الذي ظهر على شاشة يتقافز بقوة؛ قفزاته السريعة

أقلقت الطبيب المختص، أوتار دماغي هائجة تنتظر رؤية ذلك القلب الكبير العائد من رحلة العلاج.

جلست بقربه أنظر إليه أتفرس في قسمات وجهه الذي يعكس صورتي، أرى شيبتي بعد مضي أكثر من أثنين وأربعين سنة لا تختلف عن شيبته الكريمة، المرض أخذ منه الكثير، جسمه المكتنز تلاشى في آخر ثلاثة أشهر مضت، أنا فسيلة من هذه النخلة الشامخة، كلما أنظر إلى وجهه أسأل نفسي هل الرحيل قد أزف موعده؟.

ربما يكون السفر قد فتح الباب أمامه، قطار الرحيل أطلق صفير حزين دوى في أذني لم يسمعه غيري.

ذلك المرض بل هو القدر المحتوم كان أمضى من السيف، لا يمكن الوقوف بوجه، في عينيه نظرات وتأملات تفصح بلسان الحال "لا رغبة لي بالحياة مع هذا المرض الذي أذهب بأسي وقوتي"... أنظر في وجهه وكل جوارحي تقول "لا ترحل.. لا تتركني يتيم لا يقوى على الحياة دونك".

عندما فتح عينيه، كنت أنتظر منه كلمات حانية، عناق دافئ مع نسيم القبلات، ابتسامته الشفافة كانت الرسالة الأخيرة التي كتبها على صفحة الذكرى الجميلة عبرت عن مكنون عالم المجهول، هناك ما هو أجمل من هذا العالم المحفوف بالألم، ويبقى الموت قصة لحياة جديدة.

سحرُ اللّيل

فوق سطح الدّار، كنت أقف أتأمّل معاني غروب الشّمس وجمال حمرة الشّفق في الأفق الرّحب، وقت الغسق، تهيم الروح بتلكَ الحمرة التي تشبه لمى الكاعب الهيفاء، ظهرت النّجوم واختفت حمرة الشّفق في غياهب الدّيجور، شاهدت أمّي تصعد السّلم، كانت تحمل فوق رأسها طست العجين المختمر، كسّرت الحطب ثم وضعته في التّنور، أشعلت النار التي أضاءت السّطح بلهيب ألسنتها المتصاعدةِ إلى عنان السّماء، قطّعت العجينَ وجعلت كلَّ قطعة أشبه بالكرة الصغيرة، أخذت قطعةً وضربتَها بيديها بقوّةٍ حتى استدارت، ثم ضربتَها في جدار التّنور فلصقت، أستوى القرص، فأخرجته أمّي وهو يفوح رائحة زكيّة وشهيّة، حوّلت نظري إلى القمر، فقد كان بدرا ساطعا في وسط السّماء، ضوءه عمّ السّطح بعد أن انطفأ سجار تنّورِ أمي، تحرّك القمر بشكل غريب وسريع نحو جهة مغرب الشّمس حتى أفل في المغرب، بقيت النجوم وحدها تتلألأ، الحدث أذهلني وجعلني أفرك عيني بقوّة، بعد لحظات أشرقت الشّمس

من مغربِها بسرعةٍ وأخذتْ مكانَ القمر، اختفتِ النّجومُ من السماءِ بقوّة نورِ الشّمس، الرهيب والمفزع أنّ الشمس توهّجت بقوّة حتى انفجرت وتشظت إلى قطع صغيرة انتشرت في عموم السّماء وأصبحت نجوما، خرج القمر من المغرب وأسرعَ ليأخذ مكانَه الأوّل قبل الأفول، أنار سطحَنا من جديد، والدهشةُ أيقظتني من حلمي الخالد، الذي لم أعرف تفسيره ومعناه إلى اليوم، هو ما يزال في ذاكرتي، رغمَ مرور أكثر من عشرين سنة.

وحوش الظلام

بدأ القلق يتسرب إلى روحها الحانية، دقائق الانتظار تحولت إلى ساعات من الرهبة والخوف، لملمت أشلاءها المبعثرة، تبرقعت بها، وانطلقت تحث الخطى نحو المدرسة، فلم تجد ضالتها المفقودة، وقت الدوام انقضى وأمسى الأبناء في أحضان أمهاتهم، فأظلمت الدنيا في عينيها الشاحبتين، مع حلول الغسق، ومازالت (هاجر) زمانها تبحث في ذهاب وإياب عن ذلك السراب بين الصفا والمروة، طارقة أبواب الهجعة بالسؤال، والجواب سلب الآمال كما سلب الليل ضوء النهار، فأعدم القدر يد الحيلة، جلست تصارع الخوف والحزن والانكسار، غلبت وانهارت الدموع سواجم...

طار النبأ إلى مسامع الأب المسكين، فدق ناقوس الخطر واجتمع كل حبيب وصديق، من أجل البحث عن (فرقد المفقود)، وبات الجميع في حراك دائم إلى انبلاج الصباح، ولا أثر أو دليل يحيي الآمال في القلوب الوجلة والأرواح المبعثرة، يعيد الابتسامة الشاردة عنها...

جاءت رنة الهاتف تنبئ عن حدث رهيب ومخيف، فالمتصل طلب (فدية من المال) قبالة حياة فرقدا!.

الأب صارع البكاء عند سماع صوت ولده الغالي، جمع الأموال لم يكن بالأمر الهين، والبيت والذهب يرخص لحياة (روحه) التي درجت بين يديه وترعرعت في أحضانه...

كان الانتظار قاتلا ومرّا وحارقا للروح الرقيقة، والاتصال الثاني حدد مكان استلام وتسليم الفدية، دون تسليم (المخطوف)!.

لا توجد خيارات متعددة أمام الأب المسكين، في الموادعة مسحة من الأمل اللامنطقي، فتلك الوحوش لا تحكمها القوانين الإلهية والوضعية، ولا منطق في تصرفاتها وأفعالها!.

جاء الاتصال الأخير بعد أن أصبحت الفدية بيد تلك الحيوانات المتوحشة، ينبئ بمكان الولد!.

وصل الأب لمكان الخبر وارتمى في أحضان الفاجعة، يلملم أشلاء ذلك (الكبد) المنحور!.

وداع قاسي

شبح الفراق بات في القريب العاجل، ذبول في ذبول كأن سيل الماء بات جافا، فأصبحت كالعود الذي جف وتساقطت أوراقه، ألم العشرة أمسى عندي أقوى وأمضى من ألم الوداع، دعواتي لها بالرحيل مستمرة في الصباح والمساء، أمست تتقلب أمام ناظري، والضجر بادٍ على وجهها الذابل، والحزن غائر وعميق كعمق عينيها، الأيام الخوالي مضت سريعة، والقادم يُنْبِئ بالأسى واللوعة، في آخر يومين كان فؤادي صريع الهواجس والهم يعتريه كما تعتري السحب القاتمة السماء الصافية، بعد العشاء بساعة واحدة، حضر عندي أحدُ الصبيان، وكان الوجوم مُسْفِرًا على وجهه الشاحب، قفزت من مكاني مهرولا إليها والخوف والوجل من الموعد الموحش قد حان أجله وحلت ساعته، نظرت فوجدت عينيها شاحبتين ويديها انقلبت زرقاوين، وضعت يدي عليها، فوجدت جسدها الناعم باردا مع حرارة الصيف، فتملكتني الحيرة عندها، إذ كيف لي أن أملك القدرة على تصبير ثلاث بنات حانيات أضلاعهن على أغلى مخلوق

لديهن في هذه الحياة التعيسة، مرت اللحظات في عراك وسيطرت روحي على جميع الأرواح، فوجهتها إلى ثم وجه الباري، وسدتها وجلست أتلو عليها أنغام الحديث القدسي، وروحها تعالج الجسد، ونفسها تخالج الخروج في جوّ من الأسى والنحيب، حتى بلغت الحلقوم، وقيل هل من رآق، وحل الفراق وفاضت روحها الطاهرة بين أناملي.

ألوان الطيف

اتّحدت الأيدي في إهالة تراب حفرة القبر، الذي وضعوا فيه جسدي الملفوفِ بالقماش الأبيض. ارتعدت روحي عندما أحسست إنّها تنسحب بقوّة طاغية إلى اللّحد، سرعةُ الحدث أذهلتني وألزمتني الحيرة، انعدام الضّوء والسّكون المتّحد مع العتمة، خلق الرّعب الأسود. تكوّرت روحي وسط أربعة جدران لا وجود لها، لكنّها تقلّصت فعليا باتّجاهي؛ حتى ضغطتني بقوّة عنيفة قطعت فيها أنفاس روحي المسكينة، كأني تحت مجموعة من الجبال الشاهقة.

الذهول أشلّ حيلتي وأعدمني القدرة، الهلاك والعدم كانا السّبيل الوحيدَ الذي تمنيته في حينها للخلاص من الجحيم المرعب، النجاة كانت نقطةً من النّور، لاحت في وسط العتمة، انفلقت فاستحال الظلامُ نورا وعمّ الضوء. أيقنتُ بالخلاصِ، سكنتْ روحي، طافت تمسحُ المكانَ وتستكشف الحال، رغم انعدام الحدود والرسومِ والأشكال. حاولتُ أن أفسّر النّور، لكن بسرعة انبثقت نقطة دائرية متعددة الألوان، بدأت تتسع حتى أمست

وكأنها برزخ متموّج ذات فجوة شبهَ أسطوانية جذبتني بقوّة مغناطيسية. صرت داخل وسط حلقات من ألوانِ قوس قزح متصلة بعضها في بعض، وبدَا البرزخ الإهليجي لا نهاية له؛ حتى بدأت أسمع بعضَ الأصوات البشريّة دون تمييز، ثمّ بدأت تتلاشى تلك الحلقات الملونة، وبدأ الصوت يتّضح لي أكثرَ فأكثر. فتحت عينيي بصعوبة بسبب ثقل أجفاني، قلتُ بصوت مبحوح: أين أنا؟... أمسكت بي يد؛ أحسست بشخص ينحني فوقي، قائلا: الحمد لله على سلامتك، لقد انتهت الآن عمليتك الجراحيّة، وقد أفقت من المخدر، وبعد ساعة سوف تصحو نهائيا من أثر التّخدير.

المؤلف في سطور

الاسم الأدبي: فلاح العيساوي

الاسم الثلاثي واللقب: فلاح عبد الحسن صاحب العيساوي.

مواليد: ١٧/ ٨/ ١٩٧٤... موبايل: ٠٧٨٠٣٢١٦٢١٨

البلد: العراق/ محافظة النجف/ قضاء الكوفة.

البريد الإلكتروني: fffhh9@gmail.com

الهواية: القراءة والمطالعة، والتأليف، وكتابة البحوث، والمقالات المنوعة، وكتابة القصة القصيرة، والقصيرة جداً، والقصة الومضة، والمسرحية، رياضي سابق برفع الأثقال والقوة البدنية، حاصل على بطولات القطر المحلية، وحاصل على شهادة تدريبة في القوة البدنية، وشهادة تحكيمية برفع الأثقال، مصمم أغلفة الكتب.

بدأ كتابة القصة كهواية سنة ٢٠٠٦ وتطورت أدواته السردية في كتابة القصة من خلال القراءة والمطالعة والتواصل مع مبدعي العراق والعرب واشترك في أول مجموعة قصصية مشتركة في القصة القصيرة جدا سنة ٢٠١٣م صدرت في مصر عن دار يسطرون، وفي سنة

٢٠١٤م طبعت له أول مجموعة قصصية بالقصة القصيرة جدا، وفي نهاية سنة ٢٠١٦م طبع له في مصر مجموعة قصصية للقصة القصيرة، وصدرت له مجموعة (أريج أفكاري) بالقصة القصيرة جدا عن دار تموز في سوريا سنة ٢٠١٧م.

- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.
- نائب رئيس إدارة نادي القصة في اتحاد الأدباء والكتاب في النجف الأشرف.
- عضو الرابطة العربية للآداب والثقافة، وعضو إدارة فرع بغداد.
- نائب رئيس تحرير مجلة الأدباء العرب.
- نائب رئيس تحرير مجلة لؤلؤة الأدبية.
- عضو رابطة الرياضيين الرواد والأبطال الأولمبية.
- عضو جمعية الرياضيين الرواد في النجف الأشرف.
- حاصل على جائزة مهرجان السفير الدولي الثالث في الأبداع الفكري للقصة القصيرة، سنة ٢٠١٣.
- حاصل على جائزة مهرجان السفير الدولي الخامس في الأبداع الفكري، عن مسرحية مشتركة مع الأديبة هدى الغراوي، سنة ٢٠١٥.

- حاصل على جائزة مهرجان السفير الدولي السادس في الإبداع الفكري، في محور المسرح، سنة ٢٠١٦.
- كرّم في مهرجان تكريم المبدعين لسنة ٢٠١٥ ضمن ٣٧٥ مبدع عراقي.. الذي اقامه الاتحاد العربي للإعلام الإلكتروني فرع العراق.. في ٥ / ٣ / ٢٠١٦.
- حاصل على الميدالية البرونزية في جائزة رضوان الفرخ الدولية للفنون والآداب الدورة الخامسة ٢٠١٦ فئة الأدب العربي، القصة القصيرة، برعاية محترف لبنان الفني.
- حاصل على المركز الرابع في مسابقة صلاح هلال الأدبية للقصة القصيرة، الدورة ١٦عام ٢٠١٧ في مصر، من بين ٢٦٥ من المشاركين من جميع الدول العربية.
- حاصل على المركز الأول في مسابقة مجلة أمارجي الأدبية في القصة القصيرة نهاية سنة ٢٠١٧.
- حاصل على المركز الثاني في مهرجان تراتيل سجادية الدولي للقصة القصيرة، التابع للعتبة الحسينية، سنة ٢٠١٧م.
- حاصل على المركز الأول في مهرجان فتوى الدفاع المقدس للقصة القصيرة، التابع للعتبة العباسية، سنة ٢٠١٨م.

- حاصل على جائزة مهرجان السفير الدولي السادس في الإبداع الفكري، في محور المسرح، سنة ٢٠١٨.

المؤلفات:

١- شذرات ناعمة: مجموعته الأولى للقصة القصيرة جداً/ مطبوع صادرة عن مركز الدعم للثقافة والفنون في اتحاد أدباء ديالى، مطبعة ديالى المركزية، تقديم القاص الأستاذ ياسين خضر القيسي، كما صدر عن دار كتابات جديدة نسخة إليكترونية بصيغة PDF.

٢- عزف بلا أوتار: مجموعته الثانية للقصة القصيرة/ صادر عن دار المختار للنشر والتوزيع، مصر العربية، سنة ٢٠١٦.

٣- أريج أفكاري: مجموعته الثانية للقصة القصيرة جداً/ تقديم الأستاذة رجاء بقالي/ المغرب ومراجعة الأستاذ الناقد الدكتور أحمد طنطاوي/ مصر، صادر عن دار تموز سوريا سنة ٢٠١٧.

٤- نظرات نقدية في سرديات فلاح العيساوي: جمع وإعداد فلاح العيساوي، الكتاب مجموعة دراسات نقدية عن أدبيات القاص فلاح العيساوي، صادر عن دار السكرية للطباعة والنشر والتوزيع، مصر - القاهرة ٢٠١٩م.

٥- أغلى من الذهب: مجموعته الأولى للقصة القصيرة/تقديم ودراسة الناقد الأستاذ ظاهر حبيب الكلابي، غير مطبوع ورقيا، وصدر عن دار كتابات جديدة نسخة إليكترونية بصيغة PDF.

٦- عودة شهرزاد: مجموعة حكايات تراثية/ غير مطبوع ورقيا، وصدر عن دار كتابات جديدة نسخة إليكترونية بصيغة PDF.

٧- حواريات المنتظرين: كتاب حواريات عن الإمام المهدي (عج) غير مطبوع.

٨- إبليس من المطلع إلى المصرع: كتاب يضم بين طياته أغلب الروايات التي جاءت عن إبليس في التراث الروائي موزعة على فصول ثمانية، غير مطبوع.

٩- أنقاض وطن: مجموعة قصصية، هذا الكتاب.

١٠- فوبيا: رواية... غير مطبوع سنة ٢٠١٨.

١١- الزئبق والنساء: كتاب مشترك للقصة القصيرة جدا مع الأديب سالم هاشم من مصر، والأديب علي عيسى الوباري من السعودية، والأديبة ريما ريماوي من الأردن، دراسة وتقديم أ. أسعد عبد الوفي (أسعد أبو الوفا)، من منشورات مؤسسة (يسطرون) للطباعة والنشر

والتوزيع/مصر سنة ٢٠١٤. وكان ضمن معرض القاهرة الدولي للكتاب الدورة ٤٥.

وكتب مشتركة كثيرة لا يسع المقام لذكرها.

نشرت له العديد من الصحف المجلات المحلية والعربية.

- مؤسس ثلاث مجموعات على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك والتي تضم اغلب أدباء العراق والوطن العربي، وهي: أ- القصة القصيرة جداً في العراق. ب- البيت العراقي للقصة القصيرة. جـ- نيازك الومضة.

المحتويات

الإهداء ٥

أوجاعُ ذكرى..... ٧

عنق الزجاجة ١٣

ذئاب رحيمة..... ١٧

عروس شنكَال ٢١

أوتار العود ٢٨

طائر الجنة ٣٥

رقية العصر..... ٣٩

عقدة الماضي..... ٤٦

حافة الانهيار..... ٥١

عطف الموتى ٥٨

بغداد..... ٦١

موعد..... ٦٤

شروق الشمس..... ٦٩

جمرات في قبضتي..... ٧٤
أزهار بين الصخور..... ٨٢
دولاب القدر..... ٩١
خفايا الجسد..... ٩٤
أصفاد في معصمي..... ١٠١
غشاء الطهر..... ١١١
أهازيج بلا معنى..... ١١٤
شفاهٌ صفيقةٌ..... ١١٩
أشواق وأشواك..... ١٢٣
آهات الفقد..... ١٤٠
سحرُ اللّيل..... ١٤٣
وحوش الظلام..... ١٤٥
وداع قاسي..... ١٤٧
ألوان الطيف..... ١٤٩
المؤلف في سطور..... ١٥١
المحتويات..... ١٥٧

انقاض وطن

تقلبني أوجاع الشوارع فوق سرير التعب، أحاول الولوج في ممرات الذكرى، هناك عند اللاشعور أغفو في حضنها، قلبها المتلهف يضمني بين ذراعيه، يحاول لملمة كياني المشظى، الاحساس بالدفء يزيد من عطشي إلى حنانها المتوهج، حتى يتصاعد الشخير المدوي من أنفاسي.